



معالجة المشكلات الاجتماعية عند الدكتور علي الوردي

بعض محاضر مجلس كلية الآداب / قسم الاجتماع كجزء من مكتبة نيل شهادة

البكالوريوس في الاجتماع للعام الدراسي الحالي

أعداد الطلاب

غفران رحيم ساير

بـشـائـر كـاطـع بـدر

زـينـب باـسـمـهـنـادـ

بـأـشـرافـ الـاسـتـاذـةـ

انـيسـ شـهـيدـ

١٤٣٨ـهـ

٢٠١٧ـمـ

معالجة

المشكلات الاجتماعية عند الدكتور علي الوردي

الفصل الأول

﴿الفصل الاول﴾

نبذه عن حياة الدكتور علي الوردي

ولد الدكتور علي الوردي عام ١٩١٣ م , وقد اعلنت عند ولادته بداية الحرب العالمية الاولى وتوفي في بغداد في ١٢ تموز عام ١٩٩٥ م اثر حربين مدمريتين وحصاراً اقتصادياً ظالماً وقهر وتوجيع كان لهما اثراً سلبياً لا يستهان به على حياته وصحته ومرضه وشيخوخته وكان سليل اسرة مرموقة في مجال العلم والادب والشعر والتجارب والحرفيه ولقد لقب بالوردي نسبة الى حرفة جده الذي كان يعمل في تقطير ماء الورد وشخصية د.علي الوردي هي نتاج عوامل متعددة ومختلفة ومتداخلة عملت على تشكيلها . فقد نشأ في اسرة فقيرة تسكن احدى ازقة الكاظمية القديمة والكاظمية كما هو معروف ضاحية من ضواحي بغداد الشمالية الهمامة التي يفصلها عن الرصافة نهر دجلة^(١)

يحدثنا د.علي الوردي عن طفولته بمرارة وعن مدرسته في الكاظمية التي اضطر الى تركها ليعمل في دكان والده وقام والده بادخاله الى احد الكتاتيب لأن الناس كانوا في ذلك الوقت يطلقون اسم (المكتب) على المدرسة الحديثة والمكتبلية على التلاميذ وكان المكتب في الحقيقة محتركاً لابناء (الافندية) اي الموظفين الحكوميين لذلك اعتبره البعض مباءه للانحراف الجنسي وفي الكتاتيب تعلم الوردي مبادئ القراءة والكتابة والحساب على الطريقة التقليدية القديمة وقد ختم الوردي القرآن واقيمت في هذه المناسبة زفة من الكتاب الى البيت , غير ان والده اعاده الى المدرسة وقبل في الصف الثاني ولكن والده اخرجه مرة ثانية بحجة المدرسة لاتفاقه^(٢)

١- ابراهيم الحيدري (علي الوردي شخصيته وافكاره الاجتماعية) الطبعة الاولى ، منشورات الجمل ، كولونيا (المانيا) ، بغداد ، ٢٠٠٦ ص ٢١-٢

٢- مجلة التضامن ، حوار مع الوردي ، الحلقة السابعة ، ١٩٨٧ ، ضمن كتاب ابراهيم الحيدري (علي الوردي شخصيته ومنهجه وافكاره الاجتماعية) ، ص ٢٢

وبعد ان ترك المدرسة اضطر للعمل مع والده في محل الصياغة ليتعلم حرفة ابيه التي تقيد في كبره وكان العمل في محل الصياغة اول تجربة له تعرف فيها على احوال السوق وسير المعاملات وكيف يتعامل مع الناس . وقد لاحظ الوردي بأن الحرفي الناجح يعامل الناس لا على اساس الحق والباطل كما كان والده يعمل ، وانما على اساس انهم على حق دوماً . حسب المثل الشائع ((الزبون على حق دائماً)) واستمر عمله في الدكان لمدة سنتين وكان اجره زهيداً وكان عليه العمل في الدكان منذ طلوع الشمس حتى غروبها لكي يساعد ابيه في كسب رزقه وكان الوردي يتذكر جيداً ما قال له ابوه ذات مرة ((يابني ان المدرسة لاتعطيينا خبزاً))^(٣)

يقول الوردي (كنت مولعاً منذ طفولتي بقراءة الكتب ولكن العطار استاذي المحترم كان يعتقد بان الكتب هي شر ما يبتلي بـها كاتب و كنت انتهز فرصة غياب استاذي عن الدكان لانهمك في مطالعة الكتب وقد طردني الاستاذ من دكانه شر طرده لانه ضبطني بـ(جريمة القراءة) واحمد الله على هذه الطرد فقد استطعت ان اتفرغ الى كتبى الحبية الى قلبي ، لاني لو بقى عطاراً لكنت الان في دار المجانين والعياذ بالله^(٤) !!! .

ان فترة طفولة علي الوردي المعذبة ومراتهقته المؤلمة التي مر بها والفقير والحرمان الذي عاشه كانت نافعة من جهة لأن اعطته ((دروساً عميقاً وبليغة عن طبيعة الانسان والمجتمع)) كما يقول^(٥)

-
- ٣- حميد المطبعي , علي الوردي يدافع عن نفسه, بغداد , ١٩٨٧ , ص^{١٩}
- ٤- المصدر نفسه , ص^{٢٨}
- ٥- ابراهيم الحيدري (علي الوردي شخصيته وافكاره الاجتماعية) الطبعه الاولى , منشورات الجمل , كولونيا (المانيا) , بغداد , ص^{٢٠٠٦} ٢٥-٢٤

وبعد ان طرده العطار استأجر دكاناً صغيراً واصبح لاول مره حرّاً في عمله واخذ يذهب الى سوق السراي لشراء بعض الكتب والمجلات المستعملة , وخصوصاً مجلتي (الهلال والمقطف) وانكب على القراءة التي دفعته الى محاولة الكتابة تقليداً لبعض الكتاب والادباء واخذ يرسل بعض كتاباته الى الصحف والمجلات التي كانت تصدر في بغداد اندماك . ومع ان اغلب المقالات التي كان يرسلها يصيّبها الاهمال كما قال , فقد نشرت له مقاله عام ١٩٣٠ شجعته على مواصلة الكتابة والنشر^(٦) وفي تشرين الاول ((اكتوبر)) عام ١٩٣٢ دخل الوردي متوسطة الكرخ في بغداد . وقد اضطر الى تغيير ملابسه التقليدية بملابس عصرية واصبح (افندياً) وكانت تأكيداً على عرقيته وانتماهه الى المجتمع العراقي الجديد , الذي كان يشعر بالاعتزاز لانتماهه له . وهو ما احدث اول نقله اجتماعية في حياته . وفي عام ١٩٣٥م تخرج الوردي من المتوسطة . وكان متتفوقاً على تلاميذ صفه وبسبب تفوقه في المدرسة حصل على مساعدة مالية من وزارة المعارف مقدارها دينار ونصف الدينار في الشهر , ولكن سرعان ما انقطعت عنه تلك المساعدة بسبب وشایة من احد كبار الموظفين في المدرسة الذي حول تلك المساعدة الى احد اهالي بلدته وقد علق الوردي قائلاً (الموظف الكبير ظالماً ولئاماً ولكن في نظر الاقرباء والمنتفعين عادلاً ورحيناً) وهذه الصورة التي نقلها الوردي تعكس طبيعة البشرية في كل زمان ومكان من جهة مثلاً تعكس المحسوبية والمنسوبية من جهة اخرى^(٧)

.....
٦- مجلة النهضة الحلقة الثامنة

٧- ابراهيم الحيدري (علي الوردي شخصيته وافكاره الاجتماعية) الطبعه الاولى ، منشورات الجمل ، كولونيا (المانيا) ، بغداد ، ٢٠٠٦ ص ٢١

غير ان علي الوردي كان نظامياً وواثقاً من نفسه واستطاع ان يضع رجله في المكان الصحيح وان يدخل في سلك التعليم الابتدائي ويصبح معلماً في احدى المدارس الابتدائية في الكاظمية وعندما استلم اول راتب شهري من قبل المدرسة ذهب مسرعاً الى سوق (السراي) ببغداد ليشتري كتاباً او مجلة وكانت مجلته المفضلة انداك (الكاتب) المصرية المعروفة التي كان يصدرها الاديب المصري المعروف احمد حسن الزيات ^(٨)

ولكن الوردي لم يتوقف عن تحقيق طموحاته ، فدخل الثانوية المركزية في بغداد وحصل على البكالوريا عام ١٩٣٦ م وكان الاول على العراق . وبسبب كفائه ارسلته الحكومة العراقية ليدرس على نفقتها . واكملا دراسته الجامعية عام ١٩٤٣ م وحصل على شهادة البكالوريوس بدرجة الشرف ايضاً . ثم ارسلته الحكومة العراقية مرة ثانية وعلى نفقتها الخاصة الى الولايات المتحدة الامريكية للدراسة في جامعة تكساس واكملا دراسته العليا . وقد حصل على شهادة البكالوريوس في علم الاجتماع عام ١٩٤٨ م ثم شهادة الدكتوراه عام ١٩٥٠ م ، وكانت اطروحته للدكتوراه حول (نظرية ابن خلدون الاجتماعية) ، وعندما عاد الى العراق عين مدرساً في كلية الاداب بجامعة بغداد بعد ان تم تأسيس قسم الاجتماع والرعاية الاجتماعية ثم اصبح استاذًا مساعدًا عام ١٩٥٣ م ثم رقي الى مرتبة الاستاذية في علم الاجتماع . في عام ١٩٧٠ م احال نفسه على التقاعد ومنحته جامعة بغداد استاذ متدرس ، وهو اول لقب يحصل عليه استاذ جامعي في العراق ، وبموجب هذا اللقب يستطيع الاستاذمواصلة عمله العلمي ، والاشراف على طلبة الدراسات العليا دون ان يقوم بالقاء المحاضرات ومن ذلك التاريخ انصرف الوردي الى البحث والتأليف ثم التأمل والاعتكاف ^(٩) .

- ٨- حميد المطبعي ، علي الوردي يدافع عن نفسه، بغداد ، ١٩٨٧ ، ص ١٩
- ٩- ابراهيم الحيدري (علي الوردي شخصيته وافكاره الاجتماعية) الطبعه الاولى ، منشورات الجمل ، كولونيا (المانيا) ، بغداد ، ٢٠٠٦ ، ص ٢٨-٢٧

لـلوردي عدداً من الاطروحات الفكرية والفرضيات العلمية ، التي عدها البعض انها فعلاً نظرية مثل ((الازدواجية الشخصية للفرد العربي)) وبغض النظر من الاختلاف او الاتفاق من صدقية تحققها او مدى اثباتها بالطرق العلمية البحثية وبأي منهجية كانت ولكن هذه الافكار والاطروحات بقيت محل اثاره واستشهاد وباحث واطر نظرية لبحوث اجتماعية وانثروبولوجيه كما سنرى لاحقا حول ماكتب عنه ومن اهم اطروحاته

- ❖ الازدواجية الشخصية للفرد العراقي والتي عممتها على الفرد العربي
- ❖ التناشر الاجتماعي وهي تحويل لاطروحة وليم اوغبرن ((الفجوة الثقافية))
- ❖ صراع الحضارة والبداءة الذي يمتد لازمنة طويلة ولا زال لحد الان مستمر
- ❖ الدعوة لقيام علم الاجتماع عربي المشار اليها اعلاه
- ❖ نبذة للمنطق الارسطي التقليدي الشائع
- ❖ نقده اللاذع للاسلوب الوعظي الذي يتبعه رجال الدين والساسة والذي يتخذه بعض الكتاب

كما حمل بشده في معظم اطروحاته على اسلوب الخطابة والحماسة الكلاسيكي الذي يمجد الذات ويرفع من شأنها دون النظر الى سلبياتها وهو ما درج عليه الكثير من شعرائنا وكتابنا . ولديه الكثير من الاعمال الهمامة فهو كتب الكثير من المقالات والبحوث واوراق العمل في الكثير من المؤتمرات والندوات العلمية والسمنارات ونشر عدد كبير من البحوث والمقالات العلمية كما ألف مجموعة قيمة من الكتب ذكرها ادناه :

 شخصية الفرد العراقي : يبحث في نفسية الشعب العراقي على ضوء علم الاجتماع الحديث ،

صدرت طبعته الاولى عام ١٩٥١ م

 خوارق اللاشعور او اسرار الشخصية الناجحة ، عام ١٩٥٢ م

 وعاظ السلاطين صدرت طبعته الاولى عام ١٩٥٨ م

- مهزلة العقل البشري , صدرت طبعته الاولى عام ١٩٥٥ م
- اسطورة الادب الرفيع عام ١٩٥٧ م
- الاحلام بين العقيدة والعلم ١٩٥٩ م
- منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته , صدرت طبعته عام ١٩٦٢ م
- دراسة في طبيعة المجتمع العراقي محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الاكبر في ضوء علم الاجتماع الحديث , صدرت الطبعه الاولى عام ١٩٦٥ م .
- لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ستة اجزاء في ١٢ كتاباً .
 - الجزء الاول ١٩٦٩ م
 - الجزء الثاني ١٩٧١ م
 - الجزء الثالث عام ١٩٧٢ م
 - الجزء الرابع عام ١٩٧٤ م
 - الجزء الخامس / القسم الاول عام ١٩٧٧ م
 - الجزء الخامس / القسم الثاني عام ١٩٧٨ م
 - الجزء السادس ١٩٧٦ م
 - الجزء السادس ملحق عام ١٩٧٩ م
- هكذا قتلوا قرة العين
- دروس من حياتي , بغداد , ٢٠٠٣

ولو قدر للوردي ان يعمل بمساحة اوسع من حرية التفكير والتعبير والكتابة وعدم خنق الرأي لاتتج اكبر واعظم مما اطلعنا عليه ولتوسيع وتفرع في اعماله التي كتبها ونشرها وما بالك لو وضعت تحت تصرفه اموالاً كافية وفريق بحث ومكتبات كافية وفرص سفر اكثرا من تلك التي اتيحت له او حرم منها مقارنة بما شهد من فرص حصل عليها الباحثين الكبار في العالم ليس المتقدم فحسب بل حتى في بعض البلدان النامية فالاساتذة الباحثون الكبار يوضعون اما على رأس مؤسسات علمية كبيرة ويمتلكون القرار فيها او تحت تصرفهم امكانيات كبيرة من سكرتيرية ومساعدين وفرق بحث ولا تنتهي بالمكتبات ووسائل النقل الاخرى .

اما بالنسبة لام اعماله التي ترجمت الى اللغة الاجنبية نتيجة لقيمتها العلمية العالية فقد ترجمت بعض اعمال الدكتور الوردي الى عدد من اللغات منها الانكليزية والفارسية والتركية والالمانية والاسبانية والبولونية وهذه ميزة اخرى يتفرد بها الوردي عن نظرائه العرب وال العراقيين ومن هذه الاعمال حسبما اوردتها الاذيب حميد المطبعي

- ١- كتاب (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي) ترجم الى اللغة الالمانية من قبل الدكتور فايرخ ونشرته دار النشر الجامعية في المانيا الغربية عام ١٩٧٢ م
- ٢- كتاب (وعاظ السلاطين) ترجم الى لغة شرقية عام ١٩٥٥ م
- ٣- البحث الذي القاه في المؤتمر الاجتماعي العالمي السادس في ايفيان في عام ١٩٦٦ م ترجم الى اللغة الاسبانية ونشرته مجلة علم الاجتماع التي تصدرها جامعة المكسيك في نيسان - حزيران ١٩٦٧ م .
- ٤- اطروحته التي نال بها شهادة الدكتوراه من جامعة تكساس الامريكية في عام ١٩٥٠ م نشرتها دار النشر الامريكية هو عام ١٩٨١ م
- ٥- مقتطفات من كتاب دراسة في طبيعة المجتمع العراقي نشرتها دار النشر الالمانية ((انتون هاينما يزنهaim)) في عام ١٩٧٤ م .
- ٦- كتاب وعاظ السلاطين الى اللغة البولونية من قبل المستشرق دمبسي في عام ١٩٨٧ م .
- ٧- كتاب ((دراسة في طبيعة المجتمع العراقي)) ترجم الى اللغة الانكليزية من قبل استاذ علم الاجتماع العراقي - الامريكي البروفسور فؤاد البعلبي عام ٢٠٠٨ م , الترجمة صدرت عن دار (the Edwin mellen press) في نيويورك .

وقد مهدت للكتاب الباحثة في تاريخ العراق الحديث البروفسور فب مار (phebe marr) وهناك مجموعة من الكتب لم تنشر لعلي الوردي وينذكرها الدكتور ابراهيم الحيدري نقاً عن الدكتور جليل العطية ان هنالك عدد من الكتب التي اعلن عنها الوردي ولم تصدر خشية بطش السلطات المتعاقبة على العراق وهذه الكتب كما ذكرها الحيدري :

- نشأت الوعي السياسي الحديث في العراق ذكره كوركيس العراق في معجم المؤلفين العراقيين

١٩٦٨/٤٨٨ بغداد

- ازدواج الشخصية قديماً وحديثاً

- تاريخ الصراع الطائفي في العراق

- ازمة المجتمع العراقي الحديث

- الحقيقة الغائبة في الاسلام

- العراق وقيم البداوة

- منشأ الحركات الاجتماعية في الاسلام

- هابيل وقابيل

اهم الاعمال التي كتبت عن علي الوردي:

❖ حميد المطبعي , علي الوردي , يدافع عن نفسه , كتاب صدر عام ١٩٨٧ م وهو عبارة عن حوارات اجرتها الاديب المطبعي مع الوردي

❖ ابراهيم الحيدري , شخصيته ومنهجه وافكاره الاجتماعية , صدر عام ٢٠٠٧ م

❖ سلام الشمام , من وحي الثمانين , صدر عام ٢٠٠٧ , وهو سلسلة لقاءات سابقة اجرتها الكاتب الصحفي سلام الشمام مع الوردي

❖ سليم علي الوردي , علم الاجتماع بين الموضوعية والوضعية , كتاب صدر عام ١٩٧٨ م

❖ خمسة كتب على كتابه ((وعاظ السلاطين)) الذي صدر عام ١٩٥٣ م لمؤلفين معروفيين في ذلك الوقت امثال كل من محمد صالح القزويني , مرتضى العسكري , عبد المنعم الكاظمي

❖ غلام حسين الافغاني , الرد على الدكتور علي الوردي , (بغداد مطبعة , اسعد عام ١٩٧٢ م)

❖ منى محمود علي العينه جي , اطروحة دكتوراه , التحضر في المجتمع العراقي في ضوء فرضية الدكتور علي الوردي في الانتقال من البداوة الى الحضارة , مقدمة لكلية الاداب , جامعة بغداد ,

م ١٩٩٨

❖ علي حسين الجابري , علي الوردي , السيرة والاراء , مطبعة النهار , بغداد ٢٠٠٣ م , علي طاهر الحلي , علي الوردي : جهوده الفكرية وارائه الاصلاحية دراسة تاريخية , رسالة ماجستير مقدمة الى مجلس كلية الاداب بجامعة الكوفة – العراق عن فكر علي الوردي وارائه الاصلاحية^(١)

١- الهاشمي , حميد المطبعي, الدكتور علي الوردي , دراسة المجتمعين العراقي والعربي , الطبعة الاولى , ٢٠١١ م , النشر مكتبة عدنان ص ٤٠-٣٥

ابتدأ حياته الكتابية في العراق بداية الثلاثينيات اديباً متأثراً بأسلوب احمد الزيات , ثم اصدر بعد تخصصه مؤلفاته المعروفة في علم الاجتماع وفي الادب ايضاً , وهي اضافة الى رسالتين جامعيتين (شخصية الفرد العراقي) سنة ١٩٥١ م , و (خوارق اللاشعور) , (وعاظ السلاطين) , (مهزلة العقل البشري) , (اسطورة الادب الرفيع) , (الاحلام بين العلم والعقيدة) , (منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته) , (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي) , (لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث)^(١٠)

وتحدى عن انشغاله بكتاب تحت عنوان (تاريخ الصراع الطائفي في العراق)^(١١) وكتاب اخر (حول طبيعة البشر) وصفه بأنه كتاب العمر الذي يستطيع فيه حصيلة دراسته وتجاربه^(١٢) وذكر كتاب اخر اقترحه عليه اصدقائه بعنوان (الضحك على الذقون) يروي فيه فنون الحكم والمترفين في الضحك على الشعوب البسطاء^(١٣) .

١٠- حميد المطبعي , علي الوردي يدافع عن نفسه, بغداد , ١٩٨٧ , ص ١٩٨ ضمن كتاب (علي الورديقراءة نقدية في ارائه المنهجية لخبة من الباحثين , ص ١٤

١١- دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ص ٣٧ ضمن كتاب (علي الورديقراءة نقدية في ارائه المنهجية لخبة من الباحثين , ص ١٤

- ١٢ - حميد المطبعي , علي الوردي يدافع عن نفسه, بغداد , ١٩٨٧ , ص ٦٦ ضمن كتاب (علي الوردي قراءة نقدية في ارائه المنهجية) لخبة من الباحثين , ص ١٤^١
- ١٣ - علي الوردي (مهزلة العقل البشري) ص ٢٨٥^٢

وكان في نظره للنجاح ثلاثة اسرار او ثلاثة شروط وهي (الموهبة والظروف المساعدة والصدفة الحسنة) وحتى على مستوى الشعوب كان يرى الرأي نفسه (ان الشعوب جميعاً هي نتاج ظروفها ، وليس هنالك شعب افضل من شعب في طبيعته) وكان يرى ان هنالك ثلاثة رجال كان لهم الفضل فيما وصل اليه الاول العطار استاذه الذي طرده من دكانه فانصرف الى المطالعة والدرس والثاني انور باشا الذي زج تركيا في الحرب العالمية الاولى الامر الذي ادى الى استقلال العراق من الحكم التركي ولو لا وجود انور باشا في تركيا لكونه عطارة في ازقة الكاظمية او كاتب عرائض على احسن تقدير ، والثالث الملك فيصل الذي انفتح على الحضارة الحديثة ، الامر الذي مهد للوردي وغيره ان يسافر الى الخارج لاكتمال الدراسات العليا^(٤) . رغم شهرة الوردي على المستوى الشعبي والجامعي والعالمي فإنه يعني سلساً يجذب وتجذب به عن رضا وقناعة ، فلم تكن الشهرة وبالاً عليه كما حدث لبعض من نال الشهرة ان عشرات الالاف الكتب من كتبه كانت تنتشر في الاوساط العراقية والعربية وتتفذ من الاسواق والعديد من كتبه ترجمها الغربيون الى لغاتهم ، صدرت اراء متنوعة في كتاباته تجسد اهميته مفكراً على المستوى العالمي ، فالوردي عند سلامه موسى (كاتب شعبي من الطراز الفريد) وعند المستشرق النمساوي جورج كرتوكوف (لا يكتب في المواضيع المطروقة وانما يتحدث في دائرة معرف ابعد)^(٥) .

.....

٤ - حميد المطبعي , علي الوردي يدافع عن نفسه, ص(١٧٠-١٧١-١٧٢-٥٢-٣٨) ص (١٧٣-١٧٤-١٧٥) ضمن كتاب (علي الوردي قراءة نقدية في ارائه المنهجية لخبة من الباحثين , ص ١٥^٣

٥ - كتاب (علي الوردي قراءة نقدية في ارائه المنهجية لنخبة من الباحثين ، معهد الابحاث والتنمية الحضارية ، منتدى سور الاذبيجية الحضارية ، الطبعة الاولى ، بيروت ، لبنان .

وهو عند البرفسور جاك بيرك ((كاتب يحلق الى العالمية باسلوبه الذي يضرب في المناطق الحساسة في المجتمع كفولتير) صدرت ردود افعال لاذعة في الادب والنحو كالذى نشرته(افق عربية) في شهر اب عام ١٩٨٦ م بعنوان (اوهام الدكتور علي الوردي في النحو العربي) فكيف يفسر منشأ هذه الردود والشتائم ؟ يقول الوردي ((انني بشر اعيش كسائر الناس ، قوّقعني الذاتية ، ولكنني كاتب اجتماعي سلكت طريق النقد الشديد لبعض المعتقدات والعادات ، وكنت اعرف منذ البداية ان الناس يتتعصبون لمعتقداتهم الموروثة وعاداتهم وهم لا يحبون من ينتقدها وهم دائمًا يذمونه وينسبون اليه التهم الشنعاء)^(١٦) . اما في العراق فقد كتب في الرد على الوردي اثنا عشر كتاباً ، غير عشرات المقالات المنشورة في الصحف رداً على كتبه ومقالاته خمسة منها في الرد على كتاب (وعاذه السلاطين) وحده^(١٧) . وكان هنالك تبرير لبعض الانتقادات التي تلقاها الوردي . وهو الاختلاف في الرؤى والمناهج ، الذي لابد ان يظهر عنيفاً ازاء اراء ذات اثر كبير وانتشار واسع ولم يغب هذا عن الوردي فقد عرف ان في خصومه من تبني المنطق الارسطي ومناهج الفلسفة القديمة فيما يحارب هو الاتجاhein بوضوح لاقتداره فيه وفيهم من غالب عليه التنظير وقد اسماهم الوردي (الفارابيون) او (الفارابيون) الذي ينمقون النظريات ويطرحونها دون ان يعيثوا بامكان تطبيقها وتحقّقها فيما كان هو رجلاً ميدانياً يتعامل مع الناس لاسيما الاوساط الشعبية فيعرف ما هو واقعي وما هو نظري بحث^(١٨)

- ١٧- مهزلة العقل البشري , ضمن كتاب (علي الوردي قراءة نقدية في ارائه المنهجية ,
١٨- مهزلة العقل البشري , ٥- ١٠ وغيرها , منطق ابن خلدون ٢٧-٢٩ , د. معن خليل عمر , ورواد علم الاجتماع في العراق ,
ص ٠٠

تجاذبات الوردي ذا العقل النقدي الواقاد , عدة نزاعات في شبابه في فترة شبابه , كانت تستهويه افكار سلامة موسى وجنوحه وقد بقيت معه نظرية داروين الى وقت متأخر , اذ نشرت له جريدة اليرموك في ١٥ كانون الاول ١٩٨٥ م مقالات بعنوان (كوكو الانسان) تلك القردة التي احتضنتها عالمة النفس الامريكية ((باترسون)) واجرت عليها تجارب ^(١٩)

يرى الوردي ان العقل البشري متحيز في طبيعته وثمة عوامل متعددة تؤثر في تفكير الانسان من حيث لا يدري منها القيم والمعتقدات والثقافة الشخصية ودرجة الذكاء لتؤلف ثلاثة انماط من القيود تحيط بالعقل:

قيود نفسية

قيود اجتماعية

قيود حضارية ^(٢٠)

-
- ١٩- نخبة من الباحثين (٢٠٠٨م) ، معهد الابحاث والتنمية الحضارية ، الطبعة الاولى
٢٠- علي الوردي ، ١٩٩٦ ، خوارق اللاشعور ، اسرار الشخصية الناجحة ، الاوراق للنشر ، الطبعة الثانية ، لندن

الفصل الثاني

ازدواج الشخصية :

الشخصية مجموعة صفات التي يتميز بها كل فرد من البشر عن الآخر فقد اتضح الان علمياً ان البشر يختلفون في تكوين شخصياتهم فمن النادر مانجد اثنين من البشر يتشارهان تشابهاً تماماً ولا بد ان يكون بينهما شيء قليل من الاختلاف او كثيراً والكثير من العلماء في وقت مضى الى القول بأن الوراثة هي العامل الحاسم في تكوين شخصية الانسان وجاء وقت اخر ذهب فيه بعض الباحثين الى القول بأن التربية والبيئة الاجتماعية والظروف التي ينشأ فيها الانسان هي الاكثر تأثيراً في شخصية الانسان من الوراثة^(١) يجب ان لاننسى ان الشخصية البشرية هي قمة الكون اي انها ارقى ما خلق الله وهي اخر حلقة في سلسلة تطور الكون حتى الان والشخصية البشرية هي حصيلة التفاعل بين عوامل الوراثة وعوامل البيئة^(٢)

^(١) عوامل البيئة

١- في الطبيعة البشرية , د. علي الوردي , الطبعة الاولى , ١٩٩٦ , منشورات الاهلية الاردن عمان . وسط البلد , ١٩٩٦/٥/٦٣٥ رقم
الايداع , ص ٢٣

٢- علي الوردي يدافع عن نفسه , حميد المطبعي , الطبعة الاولى ١٩٨٧ , منشورات وتوزيع المكتبة العالمية , بغداد , شارع السعدون ,
ص ١٤٠ - ١٣٨

ان الازدواج ينشأ في المجتمع عند وجود نظامين متقاضين من القيم الاجتماعية فيه . فالفرد الذي ينشأ في مثل هذا المجتمع يتلقى منذ طفولته نوعين من الابحاث الاجتماعي , احدهما يدفعه نحو تقدير اخلاق معينة والآخر يدفعه نحو تقدير اخلاق مناقضة لها , وهو في ذلك يتذبذب في حياته سلوكين مختلفين من حيث لا يدرى ان ازدواج الشخصية لا شعوري لا يدرى به صاحبه في اكثر الاحيان^(٣) الخطأ الذي وقع فيه استاذنا الوردي انه استعاد مفهوماً من علم النفس المرضي , فحصل حالات مرضية نادرة وطبقه في علم الاجتماع وعممه على شعب باكمله وال الصحيح ان مقصده الوردي هو حالة من التناقض او التناحر او التطابق او التناقض بين الفكر والمعتقد الذي يحمله الفرد وبين التصرف الذي يقوم به وهي حالة شائعة بين البشر ولا ينفرد بها العراقيون او يمتازون بها على غيرهم من الشعوب^(٤) ان كثير من المسلمين سيما اهل العراق مبتلين بداع العراق النفسي اثناء الحكم الاموي فكانت حياتهم واقعة تحت تأثير القيم البدوية بينما كانت حياتهم متأثرة بالتعاليم الاسلامية , كانوا يشعرون في باطن انفسهم بتناقض ما يفعلونه وما يقولون وكانت الثورات المتواتلة في ذلك العهد عبارة عن مظهر خارجي لما يكمن في داخل النفس من تناقض وتنازع^(٥) يرى الوردي بأن العقل البشري متحيز بطبيعته وان هناك عوامل متعددة توثر في تفكير الانسان من حيث لا يدرى وفي مقدمتها المعتقدات والقيم والتقاليد التي ينشأ عليها الانسان وكذلك العواطف والمصالح ودرجة التعليم والذكاء فالانسان يتصور بأنه حر التفكير واثرت هذه في اتخاذ مواقفه من الاخرين ولاتفيد في ذلك الادلة العقلية والنقلية فالعقل البشري مغلق بخلاف سميك لا تنفذ اليه الادلة والبراهين الامن خلال نطاق ضيق ومحدود^(٦)

- ٣- من وحي الثمانين ، الدكتور علي الوردي ، الطبعة الاولى .. ٢٠٠٧ ، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر ، ص^{١١}
- ٤- علي الوردي وازدواج الشخصية العراقية مقاله لقاسم حسن صالح ٢٠٠٩/٣/٣٠ ، الحوار المتمدن
- ٥- واعظ السلاطين لعلي الوردي ، دار الحياة ، ص^{٣٦} ، مكتبة الكلية .
- ٦- ابراهيم الحيدري (علي الوردي شخصيته وافكاره الاجتماعية) الطبعة الاولى ، منشورات الجمل ، كولونيا (المانيا) ، بغداد ، ٢٠٠٦ م

وعلى كل حال فان اغلب الباحثين في هذا الموضوع يميلون الى الاعتقاد بوجود العقل الباطن وانه مصدر القوة النفسية الخارقة ومعنى ذلك ان العقل الباطن اصبح في نظر هؤلاء مجالاً لنوعين من القوى الخفية فهو مبادلة للرغبات المكبوتة من جهة كما اشرنا الى ذلك انفاً وهو منبع القوة الخارقة من الجهة الاخرى اذن انه مكان الله والشيطان معاً فهو يدفع الانسان في سبيل الخير والابداع احياناً ويدفعه في سبيل الشر والاعتداء احياناً اخرى ^(٧) ان هذا الازدواج يشتند في المراكز الدينية اكثر من غيرها ففي المجتمع الذي يكثر فيه الواضعون والفقهاء يكون الناس فيه ذو وجهين فهم في اعمالهم يشبهون سائر الناس ولكنهم يمتازون انهم يتواضعون وويتفقون بالدين والثور اكثر من غيرهم ^(٨) مما يؤسفني ان موضوع ازدواج الشخصية قد اسيء فهمه من قبل الكثيرين ، ومما يؤسفني ايضاً ان بعض الجهات في الخارج قد استغلته لاغراض غير علمية ، اذ هي فسرته تفسيراً يخالف مقاصدته منه واني في سفراتي الى الخارج حاولت الرد على هذا التفسير المغلوط وتصحیحه بمقدار جهدي ^(٩) ان الجهات المغرضة تظن ان ازدواج الشخصية منحصر في الشعب العراقي وحده ، وهذا رأي لم اقل ولم يقل به اي باحث اجتماعي .

٧- خوارق اللاشعور ، علي الوردي ، الطبعة الثانية ١٩٩٦ ، دار الوراق للنشر ، ص^{٣٨}

٨- وعظ السلاطين ، على الوردي الطبعة الاولى ، ٢٠٠٥ ، منشورات سعيد بن جبير ، ص ٦

(١) اجرت الصحفية الامريكية كريستين هيلز حوارا مطولاً مع الرئيس العراقي السابق صدام حسين ، حيث سأله الصحفية الامريكية عن ازدواجية الشخصية العراقية فنفي بشدة ان يكون الانسان العراقي مزدوج الشخصية ، فردت عليه بأن بروفسورة عراقية هو الدكتور علي الوردي يرى ذلك . وبعد المقابلة في الصحف سئل الوردي عن رأيه بوجهه ، نظر الرئيس فنفي ان يكون هناك تناقض بين الرأيين ، فالرئيس حسب رأي الوردي ينظر الى الامر من وجهة نظر القائد السياسي ، بينما الوردي ينظر اليه من وجهة نظر علمية محضة ، ص^{١٠٧} ضمن كتاب من وحي الثمانين ، للدكتور علي الوردي ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٧ ، مؤسسة البلاغ .

لقد ثبت علمياً ان الازدواج موجود في جميع المجتمعات تقريباً ، انما هو يتفاوت في درجة شدته وسعة انتشاره من مجتمع لآخر تبعاً للظروف التي يمر بها المجتمع . كان الازدواج واضحاً في العراق في العهد العثماني ، اذ كان الفرد حينئذ يسمع المواعظ الدينية من جهة ، وهي المواعظ التي تدعوا الى الاخلاق والحلم والتقوى والاخاء والزهد والتواضع ، بينما يرى من جهة اخرى بان الناس يقدرون الشقي^(١) ، والذي يوصف بأنه (زلمة) او (رجال) وانه (يغلب ولا ينغلب) وانه اذا مشى اهتزت الارض تحت قدميه والخ

١ - توضيح لمعنى (الشقي) : هو الشخص الذي يسمى باللهجة اللبنانية (قاضي) والمصرية (فتوة) والاردنية (الازعر) ولهؤلاء الشقاوat اعراف وتقالييد في الملبس والشكل والسلوك من بينها انها يحمون ابناء محلتهم ولا يعتدون عليهم مقابل اتاوة او خريبة يدفعها ابناء المحلة ولكنهم يغيرون على المحلات الاخرى فيعتدون على اهلها بالضرب والسرقة وغيرها من الموبقات ، ص ١١٨

ولهذا كنا نرى في العهد العثماني قد اصيروا بازدواج الشخصية ، فنراهم في بعض الاحيان اتقياء يذمون الدنيا وما فيها من طمع وتغلب واعتداء بينما نراهم في الاحيان الاخرى اشقياء يفتخرون بالغلبة والشطارة والسطو وقوة البأس . يجب ان لا ننسى بأن الناس لم يكونوا كلهم كذلك فمنهم من كان نقيراً حقاً لا يحب الشقاوة ولا يرضاهما في احد ، ومنهم من كان على العكس من ذلك فقد كان شقياً لا يعرف التقوى وكان بعض الافراد في الوسط بين هذا وذلك وهم مزدوجون من يث لا يعرفون . احب ان اذكر في هذه المناسبة محاضرة عامة القيتها في النجف قبل بضع عشرة سنة وكان عنوانها (شخصية الفرد النجفي) وفحوى تلك المحاضرة ان المجتمع النجفي في تلك الفترة منقسم الى فريقين هما (الزقرت) و(الشمرت) وكثير ما كانت المعارك الضارية تتشعب بين الفريقين فيذهب الغالبون الى بيوت المغلوبين على نحو ما تفعل القبائل البدوية في الصحراء^(٢)

٢- من وحي العثمانيين لدكتور علي الوردي ، الطبعة الاولى ، ٢٠٠٧ ، مؤسسة البلاغ للنشر ، ص ١٠٩

يحدثنا الشيخ جعفر محبوبة في كتابه (ماضي النجف وحاضرها) ، انه في عام ١٣٢٣ هـ اي عام ١٩٠٤م شهد معركة محلية ضارية في النجف كان البطل المغوار فيها اسمه (عزيز باقر شام) وكان من (الشمرت) ، وقد ابدي هذا الرجل شجاعة منقطعة النظير وتمكن من قتل رجال من الزكرات وكانوا مشهورين بالشجاعة ولكنه قتل اخيراً هو وولاه اللذان كانوا يقاتلان معه وبالتالي تم النصر النهائي للذكرت ، ويقول الشيخ جعفر انه رأى بعينه الغالبون وهم يحملون الاثاث والفرش الثمينة التي نهبواها من بيوت المغلوبين^(٣) ان بلدة النجف في الوقت الذي كانت تلك المعارك المحلية تجري فيها على هذا المنوال كانت مركزاً دينياً فيها عدد كبير من المدارس الدينية ويقطنها مئات من الطلبة ورجال الدين وهذا وضع لابد من ظهور الشخصية الازدواجية فيه لبعض الافراد قليلاً كانوا او كثيراً اذ هم ينشأون على تقدير القيم المحلية من جهة وتقدير القيم الدينية من جهة اخرى^(٤)

-
- ٣- من وحي العثمانيين للدكتور علي الوردي , الطبعة الاولى , ٢٠٠٧ , مؤسسة البلاغ للنشر , ص ١١٠
- ٤- انظر : هكذا عرفتم , تأليف جعفر الخليلي , تجد صورة واضحة للمجتمع النجفي , ضمن كتاب من وحي العثمانيين للدكتور علي الوردي , الطبعة الاولى , ٢٠٠٧ , مؤسسة البلاغ للنشر , ص ١١٠

يمكن القول بشكل عام ان رجال الدين كانوا يتصرفون بالاخلاق الدينية ويشجبون القيم المحلية ويعدونها من اخلاق الجاهلية التي نهَا الاسلام عنها , ولكن القيم المحلية في الوقت نفسه كانت سائدة في اوساط العوام وهم كانوا يتتقاضون ويتبازون بها , وماذا يمكن لفرد العادي ان يفعل اتجاه هذا التناقض في مجتمعه ؟ فهو قد يجد نفسه مدفوعاً في بعض الاحيان الى التزام القيم المحلية تاره , او القيم الدينية تارة اخرى , ارجوا من ذلك القارئ ان لا يغدر ذلك مذمة بلده النجف , فان معظم المدن العراقية او كلها كانت تشبه النجف في العهد العثماني , فقد كانت المعارك موجودة في كل بلدة تقريباً , كما كانت المعالم الدينية والمواعظ موجودة كذلك , واني اريد ان انتهز هذه الفرصة لكي اقدم الشكر لاهل النجف لانهم تحملوا محاضرتني بروح موضوعية , ولم يعارضوها او يجادلوا فيها الا في حدود ما يسمح به الاسلوب العلمي ولو القيت المحاضرة في بلدة اخرى لربما اراني اهلها نجوى الضحى ^(٥)

.....
٥- من وحي العثمانيين للدكتور علي الوردي ، الطبعة الاولى ، ٢٠٠٧ ، مؤسسة البلاغ للنشر ، ص ١١١

يظن بعض الناس ان النفاق وازدواج الشخصية شيء واحد والواقع ان النفاق وازدواج الشخصية صنفان مختلفان فالازدواج لأشعوري ولا يدرني به صاحبه في اغلب الأحيان اما النفاق فان صاحبه يشعر به ويقصد به عمداً من اجل منفعة شخصية ، وهو يكثر في المجتمع الذي يسوده النظام الاستبدادي وتضعف فيه الديمقراطية هناك مجتمعات قليلة قد يظهر فيها الازدواج والنفاق معاً في درجة كبيرة ولكن هذا لا يعني ان بينهما صلة مباشرة . فكل منهما له اسبابه الخاصة به ، كما انه له نتائجه الاجتماعية التي تختلف عن نتائج الآخر (اما اذا اردت رأي في المجتمع العراقي في وضعه الحاضر من حيث وجود ازدواج الشخصية فيه) في الواقع ان هذا الموضوع طويل وعربيض واني لم اتمكن من دراسته دراسه وافية من جميع جوانبه . والمأمول من الباحثين الشباب ان يتموا ما بدأنا به ، نحن الشيوخ ولكن الذي اخشاه منهم ان يضيعوا علينا الخيط والعصفور ، واني مت塌ل من بعض بباحثينا الشباب واملی فيه ان يقوموا بواجبهم في هذا السبيل ولكن اخشا عليهم هو ان يطغى عليهم المشعوذين الذين ينعقدون مع كل ناعق ويميلون مع كل ريح . فقد عانينا من هؤلاء الشيء الكبير في زماننا ، وهم موجودون في كل زمان ومكان مع الاسف الشديد^(٦)

٦ - من وحي العثمانيين لدكتور علي الوردي ، الطبعة الاولى ، ٢٠٠٧ ، مؤسسة البلاغ للنشر ، ص ١١٢
س/ ما هي الطبيعة البشرية التي تراها انت ليكن هذا بداية للحوار ؟

ج/ هنالك ثلاثة محاور تدور حولها الطبيعة البشرية ، ومن الصعب ان يفهم الانسان هذه الطبيعة دون فهم المحاور ، هي الشخصية والعقل والانوية . وسوف تحدث الان عن الشخصية فالمعنى المقصود بالشخصية هي مجموعة من الصفات التي يتميز بها كل فرد من البشر عن الآخر ، فقد اتضح علمياً ان البشر يختلفون في تكوين شخصياتهم ، فمن النادر ان نجد اثنين من البشر يتشابهان في شخصياتهما تشابهاً تاماً ، لابد ان يكون بينهما شيء من الاختلاف قليلاً او كثيراً ، وهنا يواجهنا السؤال الاكبر والذي اصبح قدماً ومال زال العلماء في بحث مستمر حوله ، هو ، لماذا يختلف الناس بعض عن بعض في تكوين شخصياتهم ؟

ذهب الكثير من العلماء والباحثين في وقت مضى الى القول بأن الوراثة هي العامل الحاسم في تكوين شخصية الانسان وجاءه وقت اخر وذهب قول العلماء الى البيئة وال التربية الاجتماعية والظروف التي ينشأ فيها الانسان هي الاكثر تأثيراً في شخصية الانسان من الوراثة ، ومن الممكن القول ان اكثر الباحثين الان يقفون موقفاً وسطاً بين هؤلاء وأولئك .

وقد اتضح ان الشخصية هي عبارة عن تفاعل بين مجموعة من العوامل بما الوراثة من جهة والتربية والبيئة والظروف التي يعيشها الانسان من جهة اخرى .

ان الفرد عندما يحمل صفات معينة ورثها من ابويه ، كشكل وجهه وبدنه ، وتكون اجهزته العصبية والهرمونية ، وكفاءة اعضائه وقوه عضلاته وغيرها من الصفات التي تدخل في بودقة البيئة الاجتماعية التي ينشأ فيها الفرد ، كالبيت الذي يتربى فيه والاقران الذين يلعب معهم في طفولته والمجتمع المحلي الذي يتلقى منه القيم منه ، والمهنة التي يكسب منها الرزق الخ ، وبهذا تتكون شخصية الفرد بمرور الزمن نجد اثنين من البشر يتشابهان تشابهاً تاماً على نحو ما اشرت اليه انفاً . خذ مثلاً توأمين متتشابهين تماماً في جميع صفاتهما الوراثية ثم نشأوا في بيت واحد ولكنهما مع ذلك الا انهما لا يملا معاً بتجارب متماثلة في طفولتهما وحياتهما وشبابهما ولا بد من ان تكون هذه التجارب والاحاديث مختلفة على وجه من الوجوه مما يؤدي الى شيء من الاختلاف في تكوين شخصياتهما .

يأتي احد الباحثين بمثل واقعي على ذلك ، هو ان امرأة كانت تمشي على الرصيف وكانا معها طفلاها التوأمان وهي كانت تحمل احد الطفلين بيديها وال طفل الاخر يمشي على الرصيف ونقوذها بيدها الاخرى ، وشاءت القدر ان تقع حادثة فظيعة خلف نافذة قريبة بحيث شاهدتها الطفل المحمول بينما كان الطفل الاخر غافلا عنها .

ان مشاهدة الحادثة الفضيعة لابد من ان يكون لها اثر في نفس الطفل الذي شاهدتها ، بينما تلك الحادثة لم تؤثر في نفسية الطفل الاخر . وهذا يمكن ان يعد نموذجا لما يجري من تجارب في الحياة و احداث مختلفة ، و درجة تأثيرها على الذين شاهدوها او شاركوا فيها . ان كل انسان لابد ان يمر تمر به تجارب و احداث مختلفة تختلف عما يمر بها الاخر فضلا عن الصفات الوراثية لفرد الذي يمر بتجارب و احداث فيختلف تأثيرها عن الاخر .

ان تعداد البشر الذين يعيشون على وجه الكره الارضية يزيدون في تعدادهم عن الخمسة مليارات . ومما يلفت النظر ان كل شخص من هذه المليارات له شخصية مختلفة عن الاخر وهذا ما يجب ان نضعه امام ابصارنا عندما نريد التعايش مع الناس و التعامل معهم .

مشكلة بعضنا انهم يتعجبون او يمتعضون حين يرون غيرهم يختلفون عنهم في المظهر و السلوك و التفكير . و انهم لا يدركون ان غيرهم يتعجبون منهم او يمتعضون كذلك فكل انسان راض عن نفسه على نحو ما ورد في المثل العربي القديم . وقد في الحديث النبوى الشريف ((رحم الله امرأً شغله عيشه عن النظر الى عيوب الناس)) .

س/ اسمح لي ان اعرض عليك ، فان كلامك الذي قلته يؤدىنا الى نتيجة غير مقبولة عقلياً وبيدك كلامك ان شخصية الانسان مصنوعة بعوامل اراده الانسان، ومعنى ذلك ان الانسان مسير في اعماله لامير وان قوة الارادة والدأب والمثابرة لا اثر لها في تقرير المصير او نجاحه في الحياة ، فما جوابك على هذا

٣٤ ص

ج/ ان قوة الارادة والدأب لها تأثيرهما في تقرير المصير ولكن هذا التأثير له حدود يقف عندها ولقد اخطأ القدماء حين قالوا (من جد وجد) او (كل من سار على الدرب وصل) او (هموم الرجال تزعزع الجبال) ان الانسان الذي يريد ان يصل الى هدف في هذه الحياة يجب ان يعلم قبل كل شيء ان النجاح

للوصول الى الهدف المنشود يحتاج الى قدرات نفسية وظروف اجتماعية مؤهلة له وبغير هذه القدرات والظروف فان ذلك الجهد المبذول يكون ذو مردودات عكسية , خذ مثلا ان شخصا يريد ان يكون عالما مشهورا و هو لا يملك الذكاء المناسب او الظروف الملائمة فهو مهما اجتهد وثابر ذهب جهوده عبثاً وقد يؤدي هذا الجهد الى الاصابة بالعقد النفسية او الاصابة بالجنون ان هذا الشخص يشبه بذلك النحيف العضلات ويريد ان يكون مغنىً مشهوراً.

ان اوضح مثل انأتي به بهذا الصدد هو المخترع المشهور ادسون الذي اخترع المصباح الكهربائي والحاكي والمخترعات الاخرى , فهذا الرجل كان موهوباً موهبة نفسية مكنته من الاختراع , وهي موهبه لم يخلقها ادسون لنفسه وانما كانت مخلوقه فيه , ثم اتاحت له الظروف ان ينمي تلك الموهبة فيه ويدربها لكي يعطي اثمارها بعدئذ , ليس بمحظوظ اي واحد منا ان يكون ادسون عن طريق بذل الجهد والدأب والمثابرة ويمكن ان نقول مثل هذا عن اي شخص يسعى للعظمة والشهرة في اي مجال من مجالات الحياة , فان كل مجال في الحياة يحتاج الى موهبه او قدرة توصل صاحبها الى النجاح فيه , وبغير هذه القدرة فان بذل الجهد لا ينفع , او يضر بدلًا من النفع ,

س/ المعروف عن ادسون هذا الذي ذكرته انه قال ان بذل الجهد والدأب هما السبب الاكبر للنجاح , وتاتي الموهبة الدرجة الثانية من ذلك , وينسب اليه القول بان الموهبة تمثل ٢٠٪ من النجاح بينما الجهد والمثابرة يمثل ٩٨٪ من النجاح , فما قولك ؟

ج/مشكلة بعض اولي المواهب انهم لا يعرفون انفسهم بأنهم موهوبون . فالذكي المفرط في ذكائه لا يدرى انه مفرط في الذكاء وقد يتصور انه لا يختلف عن غيره في الذكاء وقد ضاعت مواهب الكثرين في زحام هذه المدينة . يبدوا ان ادسون كان من هذا النمط , او انه كان متواضعاً لا يريد ان يتباها بين الناس , ونحن لو درسنا ميسرة هذا الرجل لوجدنا ان الموهبة كان لها الاثر الاكبر في نجاحه العظيم . ليس هنا مجال الاسهام في ذكر سيرة هذا الرجل , وقد يكفي ان نقول انه عندما ادخل الى المدرسة في طفولته لم يوافق فيها , فبعد مرور ثلاثة اشهر من دخوله فيها كتب مدير المدرسة الى امه انه مصاب بالخلاف العقلي وقال عنه انه لا خير فيه . وللهذا فقد تقرر اخراجه من المدرسة . يمكن القول ان ذكاء ادسون في طفولته كان ارفع كثيراً من مستوى اقرانه من التلاميذ , وربما كان ارفع من مستوى معلمييه , وهذا هو الذي جعله لا يستطيع التكيف مع محیطه المدرسي , ويقال انه كان محباً للاستطلاع الى درجة عجيبة غير مألوفه . فكان يسأل عن كل شيء يراه ويلوح في سؤاله . لو ان ادسون قد ولد في قرية بدائية منعزلة لكان ذكائه المفرط شوئاً عليه ويبقى طوال حياته لا خير فيه ويموت غير مأسوفاً عليه , من حسن حظ

هذا الرجل انه ولد في حضارة راقية من جهة ، وكانت له ام مثقفة وعاقلة من جهة اخرى فقد تولت امه تعليمه بعد اخراجه من المدرسة ثم اتيح له بعد ذلك بعض الظروف والمصادفات مما جعله قادرًا على استثمار موهبته الذكائية الخارقة حتى اصبح اخيرا اشهر مخترع في تاريخ البشر او اعظم مخترع . وان خلاصة ما اردت قوله بهذا الصدد ان كل فرد من البشر ليس له يد في صناعة شخصيته الا ضمن حدود معينة فهو صنيعة عوامل لا اراده له فيها الا قليلاً .

س/ اريد ان اعرض عليك مرة اخرى ، فأن كلامك هذا يؤدي الى الاستسلام بالاعذار القائل ((ما يصيّبنا الا نصيّبنا)) وهذا المبدأ كان شعار المجتمعات القديمة المختلفة بينما نحن الان نطلع لعصر النهضة والتقدم ورجائي منك ان تشرح الموضوع بوضوح ؟

ج/ قلت انفا ان الجهد والمتاجرة والدأب لهم تأثيرهما في تأثير المصير ولكن لهذه التأثير حد يقف عنده ، فان الذي يبذل الجهد في مجال لا يقدر له او موهبه لابد ان يكون مصيره الفشل الذريع ، وكذلك الذي يبذل الجهد في ظروف غير مناسبة لا يتوقع النجاح لنفسه ،

ان مبدأ (من جد وجد) خطأ ولكن المبدأ المناقض له اي مبدأ الاستسلام للقدر ايضا خطأ ، اما المبدأ الصحيح فهو الذي يكون في الوسط بين هذين المبدأين المتناقضين (٣٦) .

ان المبدأ الاول كثيرا ما يؤدي الى ضياع المجهود وتحطيم الشخصية لانه يجعل الانسان يسعى لهدف نحو الحياة فوق نطاق قدراته ان كل مجال او مهنة في الحياة بحاجة الى قدرة او موهبة تؤهلها ، فالذى يطمح ان يكون عالماً يجب ان يكون لديه درجة عالية من الذكاء والا فان جهده وكده يذهبان عبثاً وربما يؤدي ذلك الى الاصابة بالعقد النفسية او الجنون وقد رأينا من امثال هذا الكثرين مع الاسف الشديد ، ايضا المبدأ الثاني فهو يضر الانسان من الجهة الاخرى اذ يجعله يهمل نفسه وماليه من مواهب وقدرات ومعتقدات ان الجد لا جدوى منه ، وهو بذلك يضر نفسه ومجتمعه . ان الدأب والسعى والمتاجرة ضرورية للانسان الذي يريد النجاح في الحياة ولكنها مشروطة بما لدى الانسان من قدرات ومواهب يتبناها العلماء بمجيء يوم يسير فيه البشرية بالطريقة الوسطى اي بين هذين المبدأين فالطفل الذي يشب عن الطوق يخضع للفحوص النفسية والبدنية لمعرفة مواهبه وقدراته ، وبذلك ينتفع منه وكذلك يعود بالنفع لمجتمعه ايضا .

س/ اسمح لي ان اقطع حديثك بسؤال خطير بيالي الان واحشى ان انساه فاذا كان الطفل يخضع للفحوص النفسية والبدنية لاكتشاف مواهبه وقدراته فما هو مصير الطفل الذي لا يملك اي قدرة او موهبة تؤهله لمehrنه او مجال معين ؟

ج/ ان النظام الاجتماعي الذي يتصوره العلماء يختلف كل الاختلاف عن هذه الانظمة التي نعيش فيها فقد اعتاد الناس على احتقار الشخص الذي يخفق في حياته من جراء نقص في قدراته او موهابه , فهم يظنون انهم هو مسؤول عن هذا الاجرام وهم يوبخونه ويلومونه قائلين له ((لماذا لم تنجح كما نجح فلان ؟)) وهذا يمكن اعتباره احد معالم الظلم الشائع بيننا .

ان اكثر الفاشلين في الحياة ليسوا مسؤولون عن فشلهم , ويمكن ان نقول ذلك على اكثر الناجحين فان الموهاب والقدرات الموروثة لها تأثيرها في نجاح الانسان او فشهه وكذلك الظروف التي يعيشها الانسان والمصادفات التي تمر به اذ لها الاثر في النجاح او الفشل .

.....

٧- الطبعة البشرية الدكتور علي الوردي ، تقديم سعد البزار ، الطبعة الاولى ، ١٩٩٦ م ، منشورات الاهلية ، الاردن ، عمان ، رقم الايداع ١٩٩٦/٦٣٥
الملحق رقم (٣) من كتاب (من وحي الثمانين) ، الطبعة الاولى ، ٢٠٠٧ ، ص ٢٠٠٧ ، ٢٠١-١٨٩ .

حوار (١)

العلامة الاجتماعي العراقي يناقش اراء مفكرين اردنيين ، ازدواج الشخصية لا شعوري في الانسان والمجتمعات البدائية خالية من الازدواج .

نشرت الافق في عددها الصادر ٤/٦/١٩٩٢ تحقيقا شارك فيه مفكرين اردنيين حول ازدواجية الشخصية العربية وكان لهذا التحقيق صداح في العراق وقد اجرى مراسل المجلة في بغداد حواراً مع العلامة الدكتور علي الوردي حول هذا الموضوع ، المعروف ان الدكتور علي الوردي اول من بحث في موضوع ازدواج الشخصية في اللغة العربية ، وذلك عندما اصدر كتابا عام ١٩٥١ م بعنوان (شخصية الفرد العراقي) . وظل يواصل البحث في هذا الموضوع في كتبه ومقالاته ومحاضراته . وفيما يلي ملخص للحوار .

ان الذي نرجوه في بداية الحوار ان تعطينا رأيك في التحقيق الذي نشرته (الافق) باعتبارك من المهتمين بموضوع ازدواج الشخصية منذ زمن طويل .

- اني في الواقع قد استفدت من هذا التحقيق الذي نشرته (الافق) ، فهو فقد لفت انتباهي لبعض الجوانب في موضوع ازدواج الشخصية ، كنت غافلا عنها ومن الممكن القول ان هذا الموضوع بحاجة الى مزيد من التفصيل والتوضيح ، اذ هو اختلطت فيه بعض المفاهيم واصبح من الضروري الفصل بينهما ، واستبيان الفروق فيها . ومن الجدير بالذكر ان ازدواج الشخصية له مفهومان مختلفان ، احدهما اجتماعي والآخر نفسي اضف الى ذلك ان ازدواج الشخصية هو لاشعوري في الانسان وليس كما يظنه البعض من حيث كونه واعياً^(١٨٩) .

ان ازدواج الشخصية مرض نفسي لا يصاب به الا عدد قليل من الناس وهو شذوذ في تكوين الشخصية حيث يتقمص فيه المصاب شخصية معينة تارة ويتحول عنها الى شخصية ثانية تارة اخرى . وهو ينسى عند تقمصه احدى الشخصيتين ما فعله عند تقمصه الشخصية الثانية . وقد يحدث احيانا ان يكون المصاب بهذا المرض ذي ثلاث شخصيات او اكثر ، ولهذا يصح ان يسمى المرض بـ(تعدد الشخصية) بدلا من ازدواج الشخصية .

اما ازدواج الشخصية في مفهومه فهو شيء آخر ، انه ليس مرضًا نفسياً بل هو ظاهرة اجتماعية يتصرف فيها كثيرون من الناس في مجتمع معين ، اذ هم في نشأتهم يتعرضون الى نظامين مختلفين من القيم فترى الواحد منهم يسلك ويفكر حسب احد النظمتين تارة وحسب النظام الثاني تارة أخرى .

كان الناس في العراق في العهد العثماني ، فقد كانوا يخضعون لنظامين مختلفين من القيم ، احدهما نظام القيم العشائرية الذي يتميز بالتعصبية البدوية والثار وغسل العار والدخلاء والشيار والنخوة والاسراف في الضيافة وتقدير الغلبة والقوة وشدة البأس لخ . اما النظام الثاني فيتمثل في القيم الدينية التي دعا اليها الاسلام والتي تحض على العدالة والمساواة والتقوى والعفو وما شابه ذلك .

فالفرد حينذاك اعتاد ان يسمع المواعظ الدينية وهي تلقى عليه صباحاً ومساءً وتحضره بأخلاق معينة بينما هو في حياته العملية يجري على اخلاق اخرى تبعاً للقيم التي نشأ فيها منذ طفولته . انه في بعض الاحيان يبكي من خشية الله وبعديداً عن المawahظ التي سمعها من غيره ، ويعتبر الدنيا فانية والآخرة باقية ولكنه فجأة يتحول الى شخص اخر عندما تتشبّع معركة بين عشيرته والعشيرة المعادية لها او عندما يلمح (شقيراً) او (قبضاياً) قوياً يمر به وهو يهز الارض باقدامه او عندما يشاهد شجاراً بين رجل ذي جاه او سلطة وآخر مستضعف فقير ، فهو ينسى عند ذلك المawahظ التي كان يجتهد فيها ويندفع مع تيار القيم التي نشأ عليها في محيطه المحلي .

ان هذه ظاهرة اجتماعية نلاحظها في معظم المجتمعات العربية ولكن تختلف شدتتها وضعفها تبعاً للمawahظ الدينية فيها من جهة ومدى انتشار القيم العشائرية فيها من جهة اخرى .

هل تقصد بقولك انها فقط المجتمعات العربية التي تنتشر فيها ظاهرة ازدواج الشخصية ام هنالك مجتمعات اخرى تنتشر فيها تلك الظاهرة ؟

ج/ يميل علماء الاجتماع الى القول بأن جميع المجتمعات المتحضرة لا تخلو من ازدواج الشخصية فلياً او كثيراً وهم لا يستثنون من ازدواج الشخصية الا المجتمعات البدائية والمنعزلة .

خذ على سبيل المثال المجتمع الامريكي .. يقول العالم الامريكي كمبيل يونغ في كتابه كتاب علم النفس الاجتماعي : ان الفرد الامريكي يعني من القيم المسيحية التي ورثها من قبل اسلافه المتدينين والتي تدعوا الى المحبة والعفوا والايثار والقيم التي تسيطر على الحياة الاقتصادية في مجتمعه والتي تدعوا الى التكالب على الدنيا والتنافس في جمع المال ، فالفرد الذي يعيش تحت وطأة هذين النظمتين المتناقضتين من القيم قد يصاب بازدواج الشخصية على وجه من الوجه .

ان هذا الذي رأينا في المجتمع الامريكي يمكن ان نراه في باقي المجتمعات الاخرى , ولكن هناك اختلافا في طبيعة الازدواج ومدى انتشاره بين الافراد , وهذا الاختلاف نشأ من جراء التفاوت في نظم القيم السائدة في كل مجتمع وشدة التناقض بينهما .

س/ انك ذكرت ان المجتمعات البدائية والمنعزلة تخلوا من الازدواج , فما هو سبب ذلك ؟

ج/ ان المجتمعات البدائية والمنعزلة يسودها نظام واحد من القيم , وهي لا تعرف غيره , خذ مثلا القبيلة البدوية الموجلة في الصحراء فهي لا تعرف من دنياها غير القيم البدوية التي تدور حول التعصبية القبلية وتقدير الغزوا والنهب والضيافة والنخوة والشهامة وما شبه ذلك , واذا جاءت احد لهم وقال انا ضد هذه القيم ولا يرضى الله بها تعجبوا منه او استهانوا به او نبذوه .

س/ انك اشرت الى ازدواج الشخصية بانه لاشعوري في الانسان فالرجاء منك توضيح ذلك لفائدة القراء , كيف يكون ذلك ؟

ج/ اني قلت ذلك اشاره الى بعض الاساتذة الافاضل كما نشرتها الفق في تحقيقها في ١٩٩٢/٦/٢٤ فقد لاحظت ان هؤلاء الاساتذة يرون ان الازدواج يظهر بوجه خاص لدى الصحفيين والكتاب اذ انهم يظهرون في كتاباتهم عكس ما يبطنون من قرارات انفسهم .

ان الاستاذ فهد الريماوي وهو صحفي واديب يعد من الجيل الصحفى الاول في الاردن , تأثر بالفكر الناصري وترأس تحرير صحيفة المجد الاردنية المعارضة , على سبيل المثال يسمى هذا الازدواج بالنقية او الباطنية وهو يقول انه موجود في النفسيه العربيه منذ زمن طويل ولا سيما على الصعيد السياسي وانه موغل في التاريخ العربي الاسلامي منذ بدايته . ثم يقول الاستاذ الريماوي ان هذا الازدواج يظهر في زماننا بعدة مظاهر ابرزها ان الكاتب في بعض الاحيان يكتب خلاف ما يبطن او يكتب شيء مخالف او مناقضا لما هو مقتنع فيه . ويعزو الريماوي هذا الازدواج الى عدة اسباب متنوعة ابرزها وجود العنف والقمع في عالم النشر والصحافة . ان هذا الرأي الذي ابداه الريماوي يوافقه فيه الاستاذ نزيه ابو نضال* فهو يقول فيما نصه (ان الكاتب الذي يكتب المقال يضع في ذهنه ان هذه الكتابة يمكن ان تلحق به الاذى سواء من جهات رسمية او اجتماعية , فهو من حيث لا يشعر يبدأ ببرمجة كتابته حتى يعبر عن الحد الادنى من قناعاته بدون ان يصطدم بتلك الجهات , واذا افترضنا ان هذا الكاتب كان شجاعا ويقول كلمته ول يكن ما يكن فهنا يبرز سؤال اين يمكن ان ينشر كلمته !)

اني اوفق على الرأي الذي جاءه به هذان الاستاذان الفاضلان في وصف الازدواجية كما يعبران عنها ولكنني مع ذلك اختلف معهما في التسمية . ففي رأي ان الازدواج الذي ذكراه هو ازدواج واع في السلوك وليس ازدواجا في الشخصية , فهناك فرق غير قليل بينهما .

ان ازدواج الشخصية كما اراه هو لاشعوري في الغالب وقد يقضى الانسان المزدوج حين ينبهه احد الى التناقض الذي يظهر بين موقفين له في الحياة , اما الازدواج الذي وصفه الاستاذان فهو ازدواج واع يفعله الانسان وهو يشعر به ويقصد به وهو يقوم بارادة منه و اختياره خوفا من اذى يلحق بالفرد او طمعا في مكافأة يأمل بها .

ان الانسان الذي يلتزم بالصراحة المطلقة في حياته الاجتماعية ويواجه الناس بالحق الذي يؤمن به من غير مداراة او مجاملة هو انسان لا وجود له على وجه الكرة الارضية , ولو فرضنا وجوده لكان من الواجب عليه ان يعتزل الناس ويعيش منفردا في عالمه الخاص به فيربح ويستربح.

- كان من بين الاساتذة الذين شاركوا في تحقيق الافق الدكتور نايف المدرس في قسم الاجتماع جامعة اليرموك , وكان رأيه ان ازدواج الشخصية هو مفهوم مرضي وليس من المستحسن وصف الشخصية العربية به , ويفضل الدكتور البنوي ان يستبدل مفهوم الازدواج بمصطلح (التناشر الاجتماعي) فما قولك؟

- ان (التناشر الاجتماعي) هو ترجمة للمصطلح الذي جاء به العالم الاجتماعي المعروف (او غيرن)* واني قد جئت بهذه الترجمة عام ١٩٦٥ م عندما اصدرت كتابي (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي) ثم عرضته على المجتمع العلمي العراقي املأا ان احظى منهم بجواب ايجابي او سلبي فلم اوفق بذلك مع الاسف الشديد واني اشكر الدكتور البنوي على استعماله لهذه الترجمة .

كان العالم (او غيرن) يقصد بهذا المصطلح ظاهرة اجتماعية تلاحظ في كل مجتمع يعني من التغيير , فمن طبيعة التغيير الاجتماعي ان اجزاء المجتمع لا تتغير كلها على وتيرة واحدة او بسرعة واحدة فمنها ما يتغير بسرعة ومنها ما يتغير ببطء وهذا التفاوت في سرعة التغيير يؤدي الى ظهور بعض المشاكل في المجتمع ^(٨)

.....

٨ - من وحي الثمانين للدكتور علي الوردي , الطبعة الاولى , مؤسسة البلاغ , ٢٠٠٧ , ص ١٣-١٨

ملاحظة : توضيح لبعض الاسماء التي وردت في البحث (من كتاب د.الوردي ص ١٣-١٨)

الحوار : نص الحوار الذي اجريته مع الدكتور الوردي ونشرته مجلة الافق الاردنية التي كنت مراسلا لها في بغداد في الصحفتين (٤٦-٤٧) من عددها المرقم ٢٥ الصادر في الاربعاء / ١٠ اذار ١٩٩٣ وكان يرأس تحريرها انداك الصحفى المعروف طارق مصاروة ص ٦٣

كمبل بيونغ : عالم نفسي واجتماعي امريكي الف كتاب (علم النفس الاجتماعي) ضمنه نظريات عرفت بنظريات بيونغ النفسيانية (اذ يختلف رأيه عن فرويد فيرى بيونغ ان الدين متصل بالحياة الانسانية ولا يصح ان يختزل الى مركب ابوي لكي يسترد المراء عافيته النفسية ، ولا بعوامل متعلقة بتطور العلاقات والوعي الاجتماعي ص ١٥

نزيه ابو نضال : الاستاذ غطاس الصوص المشهور (نزيه ابو نضال) وهو ناقد ادبى اردني ولد في عمان عام ١٩٤٤ م ، يحمل شهادة الماجستير في الادب العربي حاز على جائزة غالب هلسا للابداع من قبل رابطة الكتاب الاردنية له مؤلفات اهمها (الشعر الفلسطيني المقاتل ، الثقافة والديمقراطية ، تاريخ الازمة) ص ١٦

اوغيرن : اعتبرت مجلة (علوم الانسانية في الموسوعة الى خصصتها لعلماء الاجتماع العراقيين ان من اهم اطروحات الوردي (التناشر الاجتماعي) وذكرت الموسوعة ان الوردي صور مصطلح الفجوة الثقافية الذي جاء به العالم الاجتماعي ولم اوغيرت وعممه على المجتمع العراقي والعربي .

الفصل الثالث

الدّوافع الّقهريّة في الإنسان و خوارق اللاشعور

ان الدّوافع الّقهريّة في الإنسان كثيرة يصعب حصرها وقد يصح القول ان كل انسان مصاب بدافع قهري واحد او اكثر من واحد ولكن الفرق بين الافراد من هذه الناحية هو فرق (درجي) فاحد الاشخاص قد يكون دافعه القهري ضعيفاً وفي مقدوره السيطرة عليه بينما يكون في شخص اخر قوياً يصعب السيطرة عليه^(١)

يقول الوردي عالم الاجتماع العراقي ان الحرية الفردية خرافة حيث يولد الناس مسجونين في قفص البايولوجيا مربوطين الى سلاسل الزمن اسرى في اغلال الثقافة و اكرارات المجتمع نحن انتا نظن احرار في المجتمع وهذا اكبر من الخرافة والواقع انتا نعيش اكرارات متتالية من المهد حتى اللحد في قبضة الجينات وزنزانة الزمن وقفص الثقافة و معتقد المجتمع ومع هذا فان هامش الحركة في المكان والفكر واللغة افضل من البايولوجيا فيتقدم المجتمع بهامش الحرية الضئيل هذا من خيال الافراد المبدعين^(٢)

١ - علي الوردي ، في النفس والمجتمع العراقي، جريدة الاتحاد ٤/٥ المكتبة الكلية ، ص^٨

٢ - محمد ياسر ، العقل الباطن ، الطبعة الثانية ٢٠٠٨ ، كنوز للنشر والتوزيع ، المكتبة المركزية ، ص^{٦٨}

لكن نفهم طبيعة الدوافع القهيرية وهو ما يسمى بالعربية باللوسوسة هو الذي يسميه العوام بـ(اللوسواس) ويسمون المصاب به باللوسواسي ويطلق عليه باللغة الانكليزية (perfectionism) وتعني بعده الاستكمال فان مشكلة المصاب بهذا الداء انه يتطلب الكمال في كل عمل يقوم به ولهذا نراه يعاود القيام به مرة بعد اخرى وهو يحس انه لم يصل الى الكمال وبذلك تضيع جهوده عبثاً ويقضي وقته فيما لا ينفع^(٣)

ان التنبؤ عن حوادث المستقبل لا يختلف في جوهره عن الاحساس باشياء موجودة في الوقت الحاضر فالنفس البشرية التي تستطيع ان تخترق حاجز المسافة الزمانية انها قد تبصر شيء متخفي عنها في ثنايا المستقبل بنفس السهولة التي تبصر بها شيء مغيّباً في احد الابعاد الثلاثة الاخرى من الفضاء^(٤) من الجوانب السلبية في اللاشعور في حياة الانسان الاجتماعية حسب رأي الوردي التعصب التقليدي والاتجاه العاطفي والدافع المصلحي والانوية والتجارب المنسوبة والرغبات المكتوته اما الجوانب الايجابية من اللاشعور معظم المخترعات الكبرى والافكار المبدعة في التاريخ البشري هي نتاج ومضات منبثقة انبثقت في اللاشعور في بعض الافراد بين حين وآخر^(٥)

من الجوانب السلبية التي ذكرها الوردي الانوية والمقصود بها هي شعور الانسان بذاته اي الاناه اتجاه الاخرين منبني نوعه وهو الشعور الذي يجعل الانسان يسعى نحو رفع مكانته في نظر الناس وكسب تقديرهم واعجابهم وان شعور الانسان بذاته ليس من فراغ بل هو مرتبط الشعور بالغير فليس بمقدور الانسان ان يشعر بذاته مالم يكن هناك شخصاً ما ينظر اليه او يقيمه^٦

٣- علي الوردي حوارات في الطبيعة البشرية ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٥ ، مطبعة السرور للنشر لمؤسسة المحبين ، ص ٩٨ ، المكتبة المركزية

٤- علي الوردي خوارق اللاشعور ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٦ ، دار الوراق ، لندن، ص ١٦٠

٥- محمد ياسر ، العقل الباطن ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٨ ، كنوز للنشر والتوزيع ، ص ٧١ ، المكتبة المركزية

٦- علي الوردي حوارات في الطبيعة البشرية ، مؤسسة المحبين للنشر ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٥ ، ص ٨٣ ، المكتبة المركزية

يفسر (كويه) هذه الظاهرة النفسية العجيبة بتنازع الارادة والمخللة او بعبارة اخرى بتنازع الشعور واللاشعور فراكب الدراجة حين يرى الشيء امامه تتبعه في ذهنه نزعتان متعاكستان الاولى نزعه لاشعورية لابد للراكب فيها تدفعه نحو ذلك الشيء فهي تسيطر على مخللة الراكب وتجعله عبدا مسخرا لها من حيث يريد او لا يريد اما النزعه الثانية فهي ارادته التي تحرضه على تجنب ذلك الشيء وكلما كانت ارادته في تجنب الشيء اقوى كان احتمال اصطدامه فيه اكبر^٧ يمكن اعتبار الانوبيه من اهم العوامل التي جعلت الانسان حيوانا اجتماعياً فالانسان لديه غريزة موروثه يجعله اجتماعيا بطبيعته وقد اخطأ المفكرون حين عزوا الطبيعة الاجتماعية في الانسان الى غريزة موروثه فيه فلو نشأ اي فرد بشري بين الحيوانات منذ ولادته لاصبح مثلها في سلوكه وقد عثروا الباحثون على افراد من هذا النمط كما مدون في المصادر العلمية , حين تقارن بين المجتمعات على مختلف مستوياتها الحضارية نجد الانوبيه تلعب الدور الاول فيها جميعا ولكن المجتمعات تختلف من حيث القيم السائدة في كل منها وهي القيم التي يجري الفرد بها احتراما او احترافا^(٨)

٧- علي الوردي , خوارق اللاشعور , الطبعة الثانية ١٩٩٦ , دار الوراق للنشر , لندن , ص ١١٧

٨- علي الوردي , حوارات في الطبيعة البشرية , مؤسسة المحبين للنشر والطباعة والمطبعة السرور , الطبعة الثانية ٢٠٠٥ , ص ٨٣

هناك الكثير من الدوافع الأخرى المسيطرة على فئة من الناس ومنها الغش والواسطة والمحسوبيّة ولكن المشكلة ليس في الغش فحسب لأن هنالك كثير من الغشاشين في العالم وإنما المشكلة في تأثير الغش وتبريمه والإعلان عنه والتناقر به والمشكلة ليس في المروءة والنجدة والمساعدة وإنما في الوساطة المتفشية في جميع المؤسسات ومن يتوسط لأقربائه وأبناء عشيرته وجياراته يصبح من الاجاويد^{١٠} إن الإنسان يسير وراء الآنا ثم يأتي العقل ليبرء ما يفعله أو يرغم فيه وإن من مفاخر المفكرين العرب إنهم انتقدوا الفلسفة العقلانية واظهروا أوجه النقص فيها^{١١}

ومن الدوافع القهرية التي يبلّى بها بعض الناس (دافع الشكاسة) وهو لا يقل ضرره على الإنسان عن مرض داء الوسوسة وهو القدرة المنحوسة على خلق الاعداء فصاحبـه دائم البحث عن عيوب غيره من الناس وهو شديد الإنقاد لتلك العيوب ولا يبالي أن يعلن انتقادـه لها أمام أصحابـها^{١٢}

١٠ - ابراهيم الحيدري ، علي الوردي شخصية و منهجه و افكاره الاجتماعية ، الطبعة الاولى ٢٠٠٦ ، منشورات الجمل ، ص ١٤٧

١١ - ابراهيم الحيدري ، علي الوردي شخصية و منهجه و افكاره الاجتماعية ، الطبعة الاولى ٢٠٠٦ ، منشورات الجمل ، ص ١٧٠

١٢ - علي الوردي ، حوارـات في الطبيعة البشرية ، مؤسـسة المحبـين للنشر وطبـاعة وـالمطبـعة السـرور ، الطبـعة الثانية ٢٠٠٥ ،

ص ١٠٤

هناك العديد من الدوافع التي لا تقتصر على الضرر بالنفس بل هي تضر بالغير وهي كثيرة وقد ابتل الكثيرون منها مع الاسف الشديد وهم فيها مجبرون لا اراده لهم فيها ولا اختيار ومنها دافع السرقة , فالانسان قد يكون غنياً ولكن يجد نفسه مدفوعاً إلى سرقة بعض الاشياء التافهة التي هو في غنى عنها وهو دافع قهري يخضع له الانسان لآخر حياته ودافع المماطلة وهو ميل الشخص للمماطلة في دفع الديون المستحقة عليه فهو قد يكون قادراً على القدرة على وفاء ديونه ولكن نفسه لا تطاوئه على ذلك ولا يهمه ان ساءت سمعته وكأنه يشعر ان اكل الدين نوع من الغلبة والشطاره اتجاه الغير ودافع الحرص , وهو شدة البخل وصاحبـه يحرص على المال التافه مهما كانت ثروته ضخمة وكبيرة وهذا عادة لا يستغني حتى اخر ساعة في حياته ودافع الايذـا وصاحبـه يحب ايذـاء الناس ولا يحب نفعـهم او مساعدـتهم ولا يرتاح نفسـيا اذا رأى احدـهم قد انتـفع وقد يحاول ان يعرقل من وصول الشـي الذي انتـفع منه ذلك الشخص ودافع الاستهـزاء وصاحبـه يبحث عن شخص اضعف منه لكي يستهـزـأ به ويضحك عليه وبالاضافة الى الكثير من الدوافع الـاخـرى المسيطرة على بعض الناس وهي وسـة تبقى بـداخلـهم الى الممات^(٩)

ما يلفت النظر عقب تأسيس الحكومة العراقية ان ظاهرة الرشوة التي كانت واسعة الانتشار في دوائر الحكومة في العهد العثماني اخذت تتناقص في العهد الوطني بينما اتسعت في الوقت نفسه ظاهرة الوساطة وهذا امر له اسبابه والرشوة لم تختف اختفاء تاما في العهد الوطني ولكنها قلت بشكل ظاهر ويجب ان نذكر ان الوساطة حل محل الرشوة من بعض النواحي ففي العهد العثماني الشخص الذي لديه حاجة في احدى الدوائر الحكومية يبحث عن شخص يتوسط له لموظف يأخذ رشوة^(١٣)

١٣ -- علي الوردي ، حوارات في الطبيعة البشرية ، مؤسسة المحبين للنشر والطباعة والمطبعة السرور ، الطبعة الثانية ٢٠٠٥ ، ص ١٤٥

الفصل الثالث

مأذق المرأة العراقية

خلال الثمانين السنة الماضية تغير وضع المرأة تغيراً كبيراً جداً من حيث تعلمها وسفورها وخروجها من البيت ودخولها الوظائف الحكومية وبعض الوظائف الأخرى ولكن القيم والتقاليد المحيطة بالمرأة لم تتغير بمثل تلك الدرجة وربما صح القول أن بعض القيم والتقاليد بقي على حاله ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن القيم الاجتماعية التي كانت سائدة في العراق في الماضي من حيث سلوك المرأة وسمعتها كانت من أكثر القيم تزمناً وتشدداً في العالم كله وكانت حوادث غسل العار أكثر في العراق مما هو عليه في العالم وقد بقيت هذه القيم في المجتمع العراقي حتى الان وان كانت تسير في طريق التضاؤل بمرور الزمن^(١)

مع أهمية دور المرأة ومكانتها في المجتمع والثقافة بأعتبارها نصف المجتمع فإن الوردي لم يخصص لها فصلاً كاملاً أو كتاباً من كتبه العديدة التي تعالج مواضيع اجتماعية مختلفة غير أنه تطرق إلى وضعية المرأة ومشاكلها وتدني مكانتها الاجتماعية في عدد من كتبه حيث ناقش وضعية المرأة في الريف والمدينة وقضية الحجاب والسفور وغيرها من المشاكل التي تخص المرأة العراقية منطلاقاً من اطروحته حول التنازع الاجتماعي في شخصية الفرد العراقي التي نتجت عن التغيرات البنوية التي حدثت في العراق في النصف الثاني من القرن الماضي تلك التغيرات العميقه الاثر التي اوقعت المرأة في شراك التنازع الاجتماعي والحضاري وكذلك ازدواج الشخصية الا ان معاناة المرأة اكبر واعمق من معاناة الرجل وذلك بسبب القيم والعادات والاعراف الاجتماعية والعشائر التي تحيط بها وتحاصرها والتي احدثت مشاكل اجتماعية ليست بسيطة^(٢)

١ - علي الوردي في الطبيعة البشرية ، محاولة في فهم ما جرى ، منشورات الأهلية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦ ، ص ٠٥٠

٢ - ابراهيم الحيدري ، علي الوردي شخصيته ومنهجه وافكاره الاجتماعية ، منشورات الجمل ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٦ ، ص ٢٠٣

ان المرأة العراقية واقعة الان في كمامة التمازن الاجتماعي فهي بعد ان تعلمت وخرجت من البيت
صارت تطمح ان تكون مثل المرأة الاوربية في جميع معالم حياتها ولكن القيم الاجتماعية المحيطة
بها تمنعها من ذلك انها واقعة في مأزق بين تيارين متناقضين تيار الحضارة الحديثة التي يدفع بها
الى الامام من جهة وتيار القيم القديمة الذي يسحبها نحو الخلف من الجهة الاخرى وما اكثر الضحايا
من اللواتي سقطن من جراء هذا الصراع بين التيارين^(٣)

كما يتحدث الوردي عن قيمة المرأة العراقية في الريف العراقي التي تعتبر في منزلة ادنى من الرجل ويحكي ذلك الى ان المرأة في رأي الريفي غير قادرة مثل الرجل على الغزو والقتال ولذلك اختصت المرأة بالاعمال المنزلية التي يستنكر الرجل من القيام بها كالطبخ والخياطة والحياكة ونصب الخيام وذلك لأن الريفي يعود في قيمه الى البداوة كما يؤكّد على الوردي الى ان البدوي لا يسيء معاملة المرأة لانه يتصرف بالمروءة والفروسية فهو لا يضرها ولا يجبرها على الزواج برجل لا ترغب به ان يكون زوجا لها والمرأة البدوية حرة في طلب الطلاق من زوجها اذا وجدت فيه ما لا ترضاه^(١)

ان عادت قتل المرأة فيما يسمى بغسل العار بدأت تضعف في العراق بمرور الزمن ولكن الشعور بالعار مازال قائماً ومازال الناس ينظرون الى المرأة التي تخرج عن القيم الموروثة نظرة احتقار شديدة وبهذا اصبح الرجل العراقي مضطرا اتجاه المرأة ان يسلك سلوكا مزدوجاً , ويتخذ معها دور (جوان تارة ودور الحاج عليوي تارة اخرى) ان الرجل يشتهي ان يعامل المرأة ما يتعامل به الرجل الاوربي للمرأة فهو يبتسم لها ويحادثها ويحاول مغازلتها انما هو لا يكاد يراها قد استجابت لاغرائة حتى يظهر لها الاحترار باعتبارها امرأة غير شريفة وهو عندما يريد الزواج ايضا ينسى تلك الامرأة الشريفة التي حاول اغرائها وغازلتها ويلجأ الى الخطبة عن طريق الاباء والاجداد حيث يبحث عن زوجة لا تعرف الغرام والهياق^(٢)

١- مصدر سابق , ص ٤٠٥

٢- مصدر سابق , ص ٥٠

المرأة البدوية تبقى محظوظة بهذه الامتيازات طالما تعيش في الbadية ولا تكاد تميل الاستقرار والزراعة حتى يتغير وضعها الاجتماعي وتهبط مكانتها وخاصة عندما تتحول إلى زراعة الخضر وتربية الماشي وامتهان البقالة وغيرها من الحرف وتستغل اقتصادياً وتعرض للبيع أحياناً بأسم الزواج وقد لا يكتفي الرجل بذلك بل يستغلها بطرق أخرى حيث يرسلها إلى السوق لبيع منتجاته الزراعية أما الزواج فيتحول إلى بيع ومقايضة غالباً ما يكون الحق الأول لزواج المرأة الريفية لأن عمها الذي يتزوجها بدون مهر أو بمهر رمزي أو تزويجها بمن لا يملك مالاً يستحوذ عليه الأب عادةً وكثيراً ما يجري الزواج على أساس المقايضة الصريحة ((كصة بكصة)) وهو اتفاق بين رجلين كل منهما يتزوج اخت الآخر ومن دون مهر أو أن تقدم المرأة في قضايا الفص العشائري أو الحشم وقد يتحدث الأب أن ينذر أحدي بناته منذ صغرها إلى سيد من سلالة النبي أو أن تهدى على نوال ما تهدى به الأشياء التي لها قيمة اقتصادية وهذه هي بعض حالات استغلال المرأة في الريف العراقي^(٣)

ان ظاهرة التحرش في النساء اصبحت واسعة الانتشار في مجتمعنا العراقي في المرحلة الراهنة وقد حاول دراستها عدد غير قليل من الكتاب الصحف كما عقدت مديرية الشرطة العامة عام ١٩٨٩م ندوة للمناقشة فيها لايجاد حل لهذه القضية حضرها وزير الداخلية في حينها وكان رأي اندراك ان هذه الظاهرة هي احدى نتائج التناشر الاجتماعي الذي تعاني منها المرأة العراقية في الوقت الحاضر وان الرجل في الماضي لم يكن قادرا على التحرش بالمرأة الا في حالات محدودة منها ما يسمى (الكسلاط) ففي الكسلاط تجتمع النساء حول القبور المقدسة ويأخذ الرجل بالتمشي على مقربة منهن بغية التحرش بشكل غير مباشر ولكن هذه لم تكن ظاهرة عامة بل هي كانت تقتصر على فئة معينة من الرجال وكان اكثر الناس ينظرون الى هذه الفئة بعين الاستصغار او الاحتقار^(٤)

كما تشيع عادةً في الريف العراقي غسل العار وهي قتل المرأة عند الاشتباه بسلوكها ومع ان هذه العادة موجودة في كثير من البلدان العربية ولكنها كانت اوسع انتشاراً في الريف العراقي منها في اي منطقة من مناطق الوطن العربي ويرجع الوردي سبب هذه الظاهرة الى استفحال التناشر الاجتماعي في الريف العراقي والتناقض في نمط الحياة واسلوب الانتساج بين الريف والبادية^(١)

وكان الحجاب مسيطرًا على المرأة في المدن ولهذا كان من الصعب على الرجل التحرش بها وهي تمشي في الشارع اما الان بعد ان انتشر التبرج والتزيين بين نساء المدن فقد وجد الرجل فرصته التي كان ينتظرها منذ زمن طويل ، ان ظاهرة التحرش بالنساء غير موجودة او قليلة جداً في المجتمعات المتقدمة التي اعتادت على الاختلاط بين الجنسين فالرجل لا يجد هنالك حاجة للتحرش بالمرأة لانه اعتاد ان يخالطها منذ حياة المدرسة ويرافقها في السفرات ويتغاضى الغرام معها علينا دون ان يوبخه احد او يردعه اما في مجتمعنا فالرجل قد ورث من الماضي قيمه المتشددة وجوعه الجنسي وهو في الوقت نفسه يرى المرأة تتقدّم امامه في الشارع وهي في اجمل زينتها وتبرّجها فكيف تريد منه ان يضبط اعصابه^(٢)

١- مصدر سابق، ص ٢٠٧

٢- مصدر سابق، ص ١٠

كما يرى الوردي فإن مأزق المرأة سوف يشتد في المستقبل القريب ولكنه لابد ان يتضاءل بالتدريج وينتهي بمرور الزمن وان العادات والتقاليد الاجتماعية التي تخص المرأة العراقية قد تغيرت الان عما كانت عليه في الماضي وهي تسير في طريق التغيير بمرور الايام وقد اكد الوردي هذا التغيير الذي يخص المرأة العراقية كان في اوضح صورة في بغداد والمدن الكبيرة الاخرى اما في الريف والقرى والبلدان الصغيرة فأن المرأة تعيش في نفس المرحلة التي عاشتها المرأة البغدادية في الفترة الماضية وسوف تواجه المأزق التي واجهته المرأة البغدادية في تلك الفترة ^(٣)

وبخصوص الحجاب اشار الوردي الى ان الحجاب لم يظهر الا في العالم الاسلامي لأن الاسلام نهى عن التبرج ولم ينهى عن السفور فقد كانت المرأة في عهد الرسول وكذلك الخلفاء قبل المرأة الريفية اليوم فكانت تسفر عن وجهها وكفيها من غير زينه ولكن الحجاب بعد ذلك لاسباب لا صلة لها بالدين الاسلامي وان التبرج ينهى عنه الاسلام لاجل ناحيتين احدهما حتى لا يظهر من بدن المرأة اي جزء باستثناء الوجه والكفافين والاخرى الا تترzin عند ظهورها امام الناس ^(٤)

٣ - مصدر سابق، ص ٢٠٨

٤ - مصدر سابق، ص ٢٠٩

ان الريفيين ورثوا عادة غسل العار من البداوة وظلوا محافظين عليها بالرغم من تغير ظروف المرأة الواقع ان انتشار هذه العادة في الريف العراقي هو اكثر من انتشارها في أي منطقة اخرى في العالم حيث ننتقل من الريف الى المدينة في العراق نجد اخر كبير في وضع المرأة فالمرأة الحضرية في العهد العثماني كانت تلبس الحجاب الكثيف عند خروجها من بيتها الى الشارع بحيث لا يظهر من وجهها او بدنها اي شيء وهذا الحجاب غير موجود في الريف والبادية اذ ان المرأة تسرف عن وجهها وكفيها من غير زينة حسب ما امرت به الشريعة الاسلامية اما عادة غسل العار فهي كانت نادرة جدا في المدينة ولا يقوم بها في الغالب الا من كان من اصل ريفي وظل محافظا على القيم الريفية هذا وان اهل المدينة استبدلوا الحجاب الكثيف بعادة غسل العار.

وخلال العهد العثماني كان المفهوم الشعبي للحجاب هو حجر المرأة في البيت ولكن بعد ان دخلت المرأة في المدارس ومجال العمل والوظائف وخرجت من البيت ووجهها سافر فلابيمكن الوقوف في وجهها اليوم لان دخولها العمل قد حررها من الحجر في البيت بعد السفور في العراق منذ الثلاثينيات من القرن الماضي وبدأت به فكرة من الطبقة العليا وقامت النساء بتقلیدها وبعد ذلك شيء فشيء وكان اول من دعا الى تحير المرأة وسفورها هو الشاعر المعروف (جميل صدقي الزهاوي) ففي عام ١٩١٠م نشرت جريدة المؤيد مقالا بعنوان (المرأة والدفاع عنها) وقد اعادت نشر المقال جريد (سوير للافكار) التي كانت تصدر في بغداد وقد ادى ذلك الى هيجان الشارع البغدادي وخرجت اثر ذلك مظاهرات تطالب بازالة اشد العقوبات على الكاتب الذي اسموه بالزنديق^(١)

كما ذهب احد رجال الدين الى الوالي ناظم باشا واوضح ما يترتب على مقال الزهاوي من المفاسد المخلة بالشريعة الغراء ووصف الزهاوي بأنه رجل دين مارق على الدين وقد اصدر الوالي امرا بعزل الزهاوي من وظيفته في التدريس التي كان يشغلها في الحقوق وقد اضطر الزهاوي الى الاعتزال في بيته خوفا من اعتداء العوام عليه ويقال ان عدد من الاشقياء ذهبوا الى داره ليلاً وطلبو منه ان تذهب معهم زوجته الى المقهى ولما استتكر الزهاوي ذلك قالوا له اذن ,كيف تطلب من بنات الناس ان يرفعن الحجاب ويختلطن بالرجال؟ ثم هددوه بالقتل اذا عاد بكتابه مثل هذه الاقوال الفاسدة وقد اقسم الزهاوي لهم بأنه لن يعود الى كتابة مثل هذه الاقوال وفي عام ١٩٢٣م احدثت ضجة دعوة قاسم امين الى سفور المرأة وتحررها وقامت هدى شعراوي بازاحة الحجاب عن وجهها علانية امام الناس وكانت اول مسلمة حضرية تسفر عن وجهها , وقد اثارت بذلك ضجة كبيرة في مصر وغضب عليها زوجها شعراوي باشا وهجرها مرة غير قصيرة والواقع ان أي ضجة تقع في مصر حينذاك كان لابد ان ينتقل اثرها الى العراق حيث كانت الصحف والمجلات المصرية تصل العراق فتؤثر بالنخبة المثقفة تأثيرا لا يستهان به^(٢)

الفصل الرابع

الشخصية التاريخية للمجتمع العراقي

أولاً: العوامل الموضوعية او العناصر الأساسية المؤثرة في تكوين المجتمع العراقي:

تترتب في تكوين المجتمع (أي مجتمع) جملة من الحقائق الموضوعية المهمة او ما يمكن تسميتها بـ(العناصر الأساسية)، ومن أهمها: العناصر الطبيعية او (المكانية) والعنصر الزماني او (التاريخي) فضلاً عن العنصر البشري.. ومجمل تلك الحقائق تؤثر في تكون شخصية المجتمع ونفسيته. ومن أجل معرفة حقيقة الشخصية العراقية الجماعية او المجتمعية، ينبغي لنا دراسة طبيعة العوامل الموضوعية المؤثرة في تلك الشخصية وأهمها:

١- الموقع الجغرافي: شكل وما زال يشكل الموقع الجغرافي الخاص بالعراق من النواحي السياسية والجيولوجية والبشرية عاماً موضوعياً مهماً، اذ يلاحظ ان حدود العراق الطبيعية مفتوحة أمام معظم المناطق والدول المجاورة خلال مراحل الحرب والسلم وعبر التاريخ⁽ⁱ⁾، فنجد مثلاً تلك الحدود كانت في زمن ما قبل الاسلام موضع مطامع الامبراطوريتين الرومانية والفارسية ومن ثم البيزنطية، فكان موقعه ساحة قتال متواصلة، او ما يصطلح عليه في العصر الحديث بـ(المجال الحيوي)، في موضوع (الجيوبالتكس)⁽ⁱⁱ⁾، كلما عن لأحد من الأباطرة توسيع امبراطوريته أو معاقبة الدول الأخرى على نزعاتها أو سلوك مواطنها. وظل العراق ساحة مواجهات وحروب حتى بعد ظهور الاسلام بل حتى بعد انتقال مقر الخلافة الى الكوفة في العقد الثالث للهجرة، فقامت ثلاثة حروب على أرضه، هي (صفين والجمل والنهرawan) ومن ثم وقائع (كربلاء والمختار وزيد بن علي). وحين تولى العباسيون الحكم في العراق زمنا طويلاً تميزت في بعض أوقاتها بالرخاء والازدهار الا أنها لم تخل من صراعات داخلية مريرة كتصفية الأمويين والبرامكة والعلويين، وتوجت تلك الصراعات بالغزو المغولي على يد هولاكو عام ١٢٥٨م، وتم تدمير بغداد وقتل أهلها وتحطيم منشآتها وحضارتها، ولم يزل الصراع الداخلي بين دوليات القلاع والتحصينات الحجرية التي كانت تنهوى مرة تحت ضربات الجيوش الصفوية وأخرى تحت ضربات

الجيوش العثمانية، وان هدأت تلك الضربات لبعض الوقت، وجذنا العراق أو بعضاً من أجزاءه خضع لحاكم عربي أو والمستبد سام أهله سواء العذاب بين القتل التنكيل والتشريد وجمع الضرائب⁽ⁱⁱⁱ⁾.

ولو أجرينا مقارنة بين الحدود الجغرافية للعراق والحدود الجغرافية لدول حضارية شرقية أخرى مقاربة له، كمصر او ايران او تركيا بل حتى الهند، لوجدنا أثر الموقع الجغرافي بوضوح تام. فقد أخبرنا أحد الآثاريين العراقيين في هذا الصدد بقوله:

"يرتبط تاريخ العراق الجيولوجي بالكتلتين العربية والإيرانية - الأناضولية التي تقع بينهما منطقة جبال زاجروس - طوروس"^(iv). ولابد لنا من دراسة ما يتصل بهذا الموقع الجغرافي من حقائق بشرية، فالعراق يقع بين حافة (الصحراء العربية) من جهات الجنوب والغرب، ومعظم الأقوام الوافدة إليه من المنطقة العربية جاءت من الأقوام البدوية منذ أزمنة قديمة، من خلال الغزو او التسلل المتكرر، وفي ذلك يقول لنا أستاذ علم الآشوريات في جامعة شيكاغو الأمريكية (ليو وبنهام) :

"لقد استقر البدو وماشيتهم في معسمرات شبه دائمة او انهم تتقلوا بين المراعي الصيفية والشتوية، وبقيت مساهمتهم لحضارة بلاد ما بين النهرين محدودة بحيث يجب عدم الاستخفاف بها. ان هذا العنصر البدوي مهما تكن طريقة حياته التخصصية المحدودة.... يقدم لنا عاماً مهماً والذي أصبح تأثيره واضحاً في جوانب متعددة لحضارة بلاد ما بين النهرين"^(v). وتتجدر الاشارة الى ان تلك الهجرات ظلت مستمرة الى وقت قريب من العصر الحديث^(vi). ولعل أعداد البدو العرب المتوافدة على العراق في مراحل تاريخه المختلفة من شبه الجزيرة العربية^(vii)، هي السبب في ان يشكل العرب غالبية السكان في العراق أمام التوافد غير العربي (الغازي وغير الغازي) بشكل خاص. فضلاً عن تعويضه لخسائره البشرية نتيجة الأوبئة^(viii)

كما تواجدت على العراق أقوام جبلية (شمالاً وشرقاً) ^(ix)، ومعظم تلك الأقوام الجبلية الواقفة إليه من بلاد فارس او بلاد الاناظول (فارسية، تركمانية) والأقوام المجاورة الأخرى من جهة ثانية، فضلاً عن تواجد سكانه الأصليين القدامى من الأقوام (السومرية والبابلية والآشورية،...الخ)، وبصرف النظر عن المسميات او النظريات الخاصة بتلك المسميات ^(x)، فان أرض العراق كانت وعبر التاريخ ملتقي ومصهر اجتماعيا او (بوقة اجتماعية) لعدة أقوام متنوعة متغيرة، دخلت في مخاض عسير من الصراع والحوار والتعايش السلمي، خاصة انه تمتع ومنذ القدم بثروات مختلفة كبيرة، طبيعية وغير طبيعية كافية لاستيعاب تلك الجماعات من جهة وخلق حالة من التفاعل والتوازن الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، بين جميع تلك المكونات، عبر مسيرة طويلة من الزمن.

وترتب على ذلك كله، خلق مجتمع جديد (منصهر وممزوج ومتفاعل)، تتمتع أفراده بهوية جديدة (العراقية)، بحيث أصبح المجتمع (الجديد) مختلفاً عن المكونات او العناصر الأساسية الداخلة في تكوينه قديماً. ذلك لأن الفرد يوجد في مجتمع ما أولاً ثم يكتسب هويته أو ماهيته لاحقاً، "بمعنى أن الهوية ليست معطى مقدساً وثابتـاً ونهائـياً، وإنما هي معطى تاريخـي في حالة صيرورة وحركة دائمـين" ^(xi).

ولذلك فاننا نعتقد ان الفرد العراقي المنحدر عن جذر العنصر العربي، يختلف عن العربي اليماني او اللبناني او المغربي، بسبب عمليات التفاعل المكاني والزمني الطويل والانصهار والتفاعل الاجتماعي مع الجماعات الداخلة في تكوين المجتمع العراقي المتجدد دائماً من خلال عدة روابط (الزواج والعمل والسكن والدراسة والعسكرية والرياضة والفنون والنادي الاجتماعية والأحزاب والوظيفة)، وغيرها من الروابط الأخرى. او التعرض المشترك لظروف (الغزو الأجنبي المتعدد الوجوه والقهر والاستبداد، والحروب، والحصار،...الخ) بين مختلف الجماعات.

كذلك الحال مع العراقي المنحدر عن جذر العنصر الكردي، يختلف عن بقية الكرد في المناطق الأخرى، كتركيا أو إيران مثلاً. والحال ينطبق على العراقي المنحدر عن جذر العنصر التركماني، يختلف عن الأقوام التركمانية في تركيا، أو مناطق أوربا الشرقية أو غيرها، كذلك الحال مع بقية العناصر الأخرى المكونة للمجتمع العراقي.

و هذه التركيبة الاجتماعية، في تقديرنا، قد تفاعلت عبر أزمان طويلة وأجيال عديدة فخلقت مجتمع وحضارة جديدة، تختلف عن حضارة الأقوام التي انبثقت عنها هذه المكونات. ويمكن الاستدلال على ذلك بوضوح تام من قبل العراقي الذي كان قد سافر إلى خارج العراق فشعر بان العراقي من أية جذور او أصول قومية كانت (عربية وكردية وتركمانية او غيرها)، او من أية ديانة (اسلامية كانت او مسيحية او صابئية او يزيديا او غير ذلك)، هو الأقرب له من حيث الطبيعة السلوكية والنفسية او العقلية، من العربي الليبي او التونسي او حتى الخليجي، او من المسلم الباكستاني او التركي او الهندي، وكذلك الحال بالنسبة للعربي المسيحي او الصابئي او الأزدي، او سواهم من الديانات او الأقوام العراقية الأخرى، على ان ذلك لا يعني انفصالاً كلياً عن العناصر القديمة المكونة لشخصية (الفرد) الاجتماعية من النواحي (القومية او الدينية)، وربما بقي تأثير تلك العناصر القديمة المكونة، لمراحل قادمة وبخاصة في حال استمرار تأثير العوامل السياسية والايديولوجية والاقتصادية.. ولذلك نجد ان بعض الدراسات والبحوث السياسية، التي تركز على أحد البعدين (القومي او الطائفي) عند تناولها لمسألة الهوية، تغفل او تتغافل كلياً امكانية تعريف الهوية استناداً إلى مقومات وطنية، وذلك اعتقاداً من أصحابها في أن الاقرار بالخصائص الوطنية للهوية يتعارض أو يتناهى أو يلغى الخصائص القومية او الطائفية أو كلتهما معاً، ولكن مثل هذا الاعتقاد لا يقوم على أساس حقيقة وإنما هو مستمد من مخاوف سياسية لأصحاب الفكر او المشروع السياسي القومي او الطائفي.

ولعل التجارب التاريخية للعديد من الشعوب والأوربية المعاصرة والتي كانت قد استخدمت من قبل (الشعارات او الأفكار القومية، او الدينية) عبر مراحل مختلفة من التاريخ، وخاصت [الحروب الصليبية (الطائفية)، القومية الاستعمارية]، في حين أثبتت التجارب الواقعية الحالية، امكانية تحقيق وحدة جديدة وهوية جديدة مختلفة عن الهويات السابقة، تلك هي الهوية (الأوربية) ^(xii).

٢. الطبيعة المناخية المتقلبة والقاسية بشكل شبه دائم.

لاحظ ويلاحظ زوار العراق الأجانب وفي مختلف المواسم والفترas المناخية تقريرياً، ان الطقس اليومي في معظم مناطق العراق يتميز بالتحول خلال اليوم الواحد، بحيث يشعر المرء في أيام عديدة من السنة بتوازي (البرد والغبار والغيوم والمطر والطقس المعتمد، ثم الحر)، أي يعيش المرء (أربعة مناخيات) في اليوم الواحد تقريرياً؟!

اما المناخ العام، فيلاحظ في العراق، "ان الشتاء شديد البرودة قارص جداً، والصيف شديد الحرارة وطويل الأجل ونسبة الحرارة في الظل كنسبة الفرق بين ٢٠ و ١٢٠ ..." على حد تعبير أحمد سوسة^(xiii)، ومما لا شك فيه ان تقلب الطقس والمناخ له انعكاس واضح على مزاج الفرد العراقي ومن ثم على شخصية الفرد والمجتمع العراقي ككل.

٣. الفيضانات والأوبئة المدمرة:

من الملاحظ ان فيضانات انهار (دجلة والفرات)، ذات طبيعة قاسية او مدمرة بالقياس الى انهار العالم الأخرى، فمثلاً يلاحظ ان نهر (النيل) في مصر يفيض في أشهر (آب وأيلول وتشرين الأول) وهي الأشهر التي تحتاجها الزراعة ويحمل من الغرين ما هو مفيد للأرض الزراعية من دون ان يؤدي الى تدمير قنوات الري.

اما دجلة والفرات فان فيضانهما في أشهر الشتاء والربع من (كانون الأول الى حزيران) ويعقب أشهر الفيضان الصيف الحار، ولذلك فان نظام الري السائد في مصر القديمة هو (الري الحوضي) في حين ان نظام الري السائد في العراق منذ القدم هو

نظام (الري الدائم)، بسبب الحاجة الدائمة الى المياه في الزراعة. وذلك يستدعي تنظيم المياه التي تتوارد على العراق بشكل كبير ومفاجئ في موسم الشتاء التي تحتاجها الزراعة بكمية أقل، في حين تكون الشحنة في موسم الصيف حين تحتاج إليها الزراعة، فالتصريف المائي لنهر دجلة في أثناء الفيضان في بغداد مثلاً يبلغ (١٠٠٠٠) متر مكعب في الثانية او أكثر، في حين ينخفض تصريف المياه في فصل الصيف الى (٢٠٠) متر مكعب في الثانية او أقل. اما في نهر الفرات فيصل في أثناء موسم الفيضان الى (٥٠٠٠) متر مكعب في الثانية او أكثر، في حين ينخفض تصريف المياه في فصل الصيف الى ما يقارب نهر دجلة اي الى (٢٠٠) متر مكعب في الثانية او أقل.

كما يتوجب الاشارة الى ان فيضان دجلة والفرات، هائل وبشكل مفاجيء والسيطرة عليه تحتاج الى نظام في غاية الدقة، في حين يفيض نهر النيل بانتظام ولا يخلق للذين يسكنون على ضفافه اي مشكلة، كما ان كمية الغرين في دجلة والفرات هي خمسة أضعاف ما يحمله النيل، اذ يحمل نهر النيل من الغرين في أقصى حدوده حوالي ٤٠٠٠ جزء من كل مليون اي بنسبة مؤوية (٤٠٪)، في حين تبلغ كمية الطمي او الغرين في دجلة بعد الفيضان كمية تقدر ٢٠٠٠٠ جزء من كل مليون، أي ان النسبة المؤوية هي (٢٪)، ونسبة مقاربة له في نهر الفرات. وتتجدر الاشارة هنا الى مسألة مهمة وهي ان رواسب الغرين، مع أهميتها في تأمين خصوبة دائمة للأرض الزراعية، تسبب اضراراً كبيرة في مجال الري في العراق، فتعيق مجرى مياه النهر مما يستدعي تطهير النهر منها بين الحين والآخر، كما ان تراكمها في اقواع الخزانات والخياض يؤدي الى تقلص كميات المياه.

والمقارنة بين حضارة العراق وحضارة مصر على سبيل المثال، حسب رأي مستر (كون) في كتابه (قصة الانسان)، نجد في مصر نهرا واحدا، في حين يوجد في العراق نهران حفرا بينهما ببراعة شبكة قنوات حسب خطط تامة متقنة وان وجهتي البعد والانحدار من النظام الذي شيده العراقيون القدماء، وهذه الشبكة من الأنهرار قربت المسافات بين المناطق المختلفة ولكنها سهلت حركة العصيان السياسي او العسكري من جهة ثانية، ولذلك لم يتم السيطرة على المدن العراقية بسهولة، فنجح النظام المركزي في مصر، لكنه واجه صعوبات عديدة في العراق^(xiv).

ان شبكة الأنهرار فضلاً عن مناطق الأهوار العراقية، غالبا ما وفرت أحد العناصر المهمة للتمرادات او العصيان من وجهة نظر القانونيين او ما يطلق عليها من لدن السياسيين بالانتفاضات او الثورات ولا سيما في العصور السابقة، بسبب طبيعة وسائل المواصلات المستخدمة في العمليات العسكرية لمواجهة تلك الحركات السياسية او العسكرية الرافضة او المتمردة على السلطة القائمة.

ويبدو ان فيضانات دجلة والفرات تختلف عن الكثير من فيضانات الأنهرار الأخرى في العالم اذ "ان سلوك دجلة والفرات لا يخضع الى أي نظام معين اي ان ما يحدث في سنة ما سواء كان فيما يتعلق بارتفاع منسوب مياه الفيضان او ما يختص بكمية تصريفه السنوي لا يمكن ان يستتج منه ما قد يحدث في السنة او سنوات التي تليها، كما ان لكلا النهرتين نظامه الخاص فان ما يحدث في دجلة لا يحدث دائما في الفرات"^(xv).

كما ان انتشار أمراض الطاعون والكوليرا وغيرها من والكوارث الطبيعية التي أصابت العديد من مناطق العراق في مختلف مراحل تاريخه القديم والوسطى والحديث^(xvi)، كثيرة ما كان يسبب الموت والرعب والمجاعة ولذلك نجد من الكتاب من كان متشارئا الى الدرجة التي تجعله يعتقد بالقول: "والحقيقة التي يمكن الجزم بها هي أننا لا نستطيع تحديد عقد من الزمن يمكن أن يوصف بالهدوء والاستقرار في العراق، بل يمكننا القول أن كل عقود أو قرون العراق كانت موسومة بالفوضى والحروب والانقلابات ان لم يكن بين العراق ودول أخرى فانها تكون بين الحكام والحكام أو بين الحكام والقبائل..."^(xvii).

٤. صراع الثقافات المتنوعة في تكوين المجتمع العراقي:

تكون وما زال يتكون المجتمع العراقي من عدة جماعات اجتماعية هي: (البدوية - الجبلية - الريفية - المدنية)^(xviii)، بمعنى آخر، ان ثقافة العناصر المكونة للمجتمع العراقي، كانت في حالة من التفاعل المستمر سلما ام حربا، وفقا لرؤيه او ثقافة كل جماعة من تلك الجماعات، المكونة للمجتمع. وعلى الرغم من وجود عناصر موحدة كثيرة، كلغة التفاهم المشتركة (العربية) في معظم الأحيان بين مختلف الجماعات السكانية، وكذلك الدين المشترك (الاسلام) لنسبة عالية من السكان، ووحدة التفاعل الحضاري العامة المشتركة منذ عدة عصور فضلا عن مصدر الحياة الأول (دجلة والفرات)، " غير ان التناسق الظاهري في الدم والديانة ووحدة المجتمع كان يضم اختلافات مفعمة بالأهمية"^(xix)، ولذلك فان الخليط المكون (قومي - ديني - طائفي - سياسي - اقتصادي) والمتفاصل مع الثقافات الأجنبية الوافدة (الشرقية والغربية)، خلق توازنا نفسيا واجتماعيا جديدا.. فالثقافة البدوية القبلية مثلا (ذات الطابع الثأري تقوم على أساس تناقض داخلي [الغزو والقتال] يقابل [الكرم والحماية والاستغاثة]) .. والثقافة الدينية: ذات الطابع الحضري، تقوم على أساس بناء الدولة، القائمة على مبادئ (العدل والمساواة) ومحاولة تقليل القسوة والتخريب^(xx)،

و(الثقافات القومية المختلفة، والقبيلة المختلفة)، تشتراك جميعا في معادلة وجود جمعي نهائي يقوم على أساس القبول بتلك المعادلة وهي (التناقض - التوازن).

٥. ظاهرة الاحتلalات الأجنبية المتكررة:

اشعة ظاهرة التدمير او التبديد او السرقة للموارد الاقتصادية والحضارية والثقافية الأساسية المعتمدة في البلاد، لأنظمة الري والزراعة والصناعة والتعليم والمعتنيات الآثرية القديمة في مراحل التاريخ الحديث والمعاصر.

بروز ظاهرة القمع والاذلال المتمعمد في التعامل مع أبناء البلد من خلال مظاهر الاستبداد السياسي والقمع العسكري. محاولات اثارة الفرقاة الاجتماعية بين أفراد المجتمع العراقي، بوسائل سياسية واقتصادية واجتماعية مختلفة (كالحروب او الصراعات)، او (السلالية (القتل)، الحزبية او العشائرية او الدينية او الطائفية او العنصرية... الخ). من خلال عناصر حاولت ربط مصالحها الخاصة مع مصالح المحتل الأجنبي، ليس في مراحل الاحتلال العسكري المباشر حسب وانما في مرحلة ما قبل الاحتلال وبعده. فضلا عن الاسقطات التي قد يخلفها المرتبطون والمستفيدون من المحتلين بعد رحيلهم أيضا، ولعل واحدة من نتائج الاحتلالات الأجنبية المستمرة للعراق، انها أدت الى محاولات تزويق وتعزيز ثقاقة الفرقاة بين أفراد المجتمع الواحد واستغلال بعض العناصر الداخلية في تكوينة المجتمع العراقي، اي تصوير او خلق حالة من الصراع بين الولاءات الجزئية الصغيرة، لتفيت الذهنية والنفسية أحياناً ولاسيما بين الفئات الجاهلة او أنصاف الجاهلة، والولاء الوطني الكبير للعراق لأسباب وغايات سياسية واقتصادية (فؤوية وشخصية)، لا اجتماعية كما حاول أصحاب تلك الأغراض طر جها كشعار ات حقنقة

(xxii) ﻉـاـلـمـ

محاولات (تقوية او أضعاف) النظام الاجتماعي القائم في الريف بشكل خاص على أساس القبيلة او العشيرة بين الشيخ وأبناء القبيلة وفقاً لمصلحة الحكام في كل مرحلة، فالعثمانيون مثلًا حاولوا اضعاف شيخ العشيرة بعد إصدار قانون الأراضي العثماني سنة ١٨٥٨، واستخدم البريطانيون سياسية مغایرة قامت على أساس تقوية سلطة الشيخ^(xxiii).

خلق آثار اجتماعية جانبية جديدة نتيجة الاحتلال الأجنبي، تتمثل في نقل معطيات الثقافة الأجنبية للمحتل من خلال استخدام وسائل جديدة في البلاد المحتلة كطراز الأبنية التي استخدمها المحتل لأغراضه الخاصة، ونقل وسائل ثقافته المتمثلة بالأدب والموسيقى والغناء، وأساليب حياته وسلوكياته اليومية كاللباس وأنواع الأطعمة والأسلحة وغيرها^(xxiv)، او القيام بأعمال او ممارسات تكون بمثابة ردود فعل على وجود المحتل. ومن أمثلة ذلك ما وجد من أزياء كزي (البوشية)^(xxv) الذي وجد في عهد التركمان (القرة قوينلوا والآق قوينلوا)^(xxvi). كرد فعل على سلوكيات الجنود المحتلين. وعلى الرغم من ذلك كله، فإن تلك الاحتلالات أثرت من جهة أخرى، فأدت إلى فتح آفاق جديدة، وتفاعل حضاري وانساني بين الشعوب التي جاءت مع المحتلين، وبين الشعب العراقي أحياناً.

٦. غالباً ما كانت أنظمة الحكم المحلي (الوطني) أنظمة قمعية مستبدة بحيث تجاوزت مظاهر الاستبداد الأجنبي.

ومن أمثلة ذلك في التاريخ المعاصر، طبيعة نظام القمع في (عهود حكم عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف والبعث) والذي تجاوز القمع في عهود الاحتلال والانتداب البريطاني، او العهد الملكي الذي وصف بالنظام المرتبط بالاستعمار. ولذلك غالباً ما وجد، أغلب زعماء العراق المحليين، ينتهيون نهايات مأساوية ودموية^(xxvii)، (اغتيال وقتل وسحل في الشوارع ورمي بالرصاص وشنق وسجون وتعذيب، ومحاكمات صورية). والأمثلة على كثيرة: العائلة المالكة جميعهم قتلوا، (بكر صدقي) اغتيال، (عقداء مايس الأربعة ١٩٤١) اعدام بالرصاص، (عبد الله ونوري السعيد)، قتل وسحل، (عبد الكريم قاسم)، (رفعت الحاج سري، ناظم الطبلجي) اعدام بالرصاص، (عبد الوهاب الشواف) قتل وسحل، (عبد السلام والبكر) موت غامض ومرير، (ناظم كزار) تعذيب واعدام، (عبد العزيز العقيلي) تعذيب وقتل بالسم^(xxviii)، (صدام، طه ياسين رمضان وبرزان التكريتي) شنق.

وهناك صور أخرى أكثر بشاعة مورست ضد آخرين في سجون نقرة السلمان وقصر النهاية، ومديرية الأمن العامة والمخابرات وغيرها، حسب بعض الروايات الشفاهية المنقولة عن قسم من السجناء الناجين.

ثانياً: صفات المجتمع العراقي المتأصلة (الحقائق الذاتية):

مثلت العوامل الموضوعية، عوامل تحديات مستمرة أمام المجتمع العراقي، وعبر التاريخ، وتلك التحديات تقتضي ردود أفعال أو استجابات، بموجب قانون (التحدي والاستجابة) الذي طرحة المؤرخ والمفكر البريطاني توينبي. وما يؤكد ردود الأفعال السريعة أو قوة الاستجابة عند العراقيين نتيجة التحديات (الطبيعية والسياسية والاقتصادية) الصعبة، اكتشافهم لأول مدرسة في العالم^(xxix) وأول نظام حكم ديمقراطي في العالم في سومر وليس أوربا او اي مكان آخر^(xxx) كما أنهم أول من اكتشف نظام الامبراطورية^(xxxii) في أكد وأول تقويم زراعي^(xxxiii) وقدرة العراقيين على تسخير الطبيعة لخدمتهم في سبيل اقامة مشاريع الري الضخمة والسيطرة على مياه الفيضانات المدمرة^(xxxiv).

وأجمالاً يمكن القول ان هنالك العديد من الصفات المتأصلة في طباع المجتمع العراقي كله بحيث صارت تطبع المجتمع العراقي وتمنحه خصوصية بين بقية المجتمعات الأخرى على مدى تاريخه الطويل ومن ابرز تلك الصفات:

غالباً ما تكون أساليب الحياة تقليدية مغروسة في الماضي: فمن الملاحظ ان المجتمع العراقي ما زال حتى يومنا، مجتمع تقليدي مغروس بالماضي، ويحاول معظم أفراده محاكاة الماضي، لا الاستفادة من دروسه الماضية. والأمثلة على ذلك عديدة، فقد وجد مثلاً، ان طراز المنازل التي استخدمها العراقيون في الريف، وهي (الأكواخ) المصنوعة من الأغصان المتشابكة والتي تغطى بشفق من البردي (الحصاران)، وتقوى بالطين، وما زالت مثل تلك المنازل موجودة حتى الوقت الحاضر.

كما ان وسائل النقل بصورة عامة، ومنها وسائل النقل النهري (كالقفنة والكلك) في بعض مناطق شمال العراق ووسطه، والبرى ما زال بعضها موجودا الى وقت قريب، بل ان بعضها من مثل(الكلك) ما زال موجودا حتى وقتنا الحاضر، وهي القوارب النهرية، التي استخدمها العراقيون القدماء فالقفنة ظلت مستخدمة في بعض المناطق الى منتصف الأربعينات وربما الخمسينات في القرن الماضي، والكلك ما زال مستخدما الى اليوم في بعض المناطق^(xxxiv).

اما وسائل النقل البري، فكانت الماشية، كالحمير والبغال والخيول، التي استخدمت منذ أقدم العصور في العراق القديم، وما زالت حتى الوقت الحاضر تجوب حتى الشوارع الرئيسية في المدن الكبرى بضمنها العاصمة، بغداد. وفي جنوب العراق وبخاصة في مناطق الأهوار، فان الأغلبية السكانية، كانت تعيش في بيوت من القصب والحرسان، وتتنقل في قوارب صغيرة، وهي طويلة ومدببة المقدمة، المصنوعة من الأخشاب المطلية بالقار تسمى محليا (المشاحيف)، وتتركز معيشتهم على حيوان الجاموس، وصناعة الحصران من القصب المستخدمة في بناء البيوت وكفرش في المنازل، وتستخدم في الأهوار، ما يعرف بظاهره (الجبيشة) وهي عبارة عن جزيرة صغيرة داخل الهاور، كما انهم يقومون بذات الأدوار الاقتصادية، الصيد وزراعة المحاصيل الزراعية (الحبوب)^(xxxxv)، بل وجد مثال يؤكد حقيقة التقليد في الملبس أيضا، إذ لوحظ ان البابليين القدمى كانوا يرتدون الاردية الكتانية والصوفية الطويلة التي تهبط الى اقدامهم، وفوق ذلك تأتي العباءة، كما كانوا ينتعلون الصنادل (الخف او النعل)، وهي خاصة ببلاد الرافدين، ويلفون العمائم حول رؤوسهم، ويتعطرون بالطيب، وهذه الألبسة ما زالت هي الشائعة حتى يومنا هذا، ربما باستثناء (العمائم) او ما كان يسمى بالدارجة في بغداد بـ (الجراوية)، في حين استبدلت في الريف بـ (العقل والковية) في الأرياف، وهي جميعها ما زالت تستخدم حتى اليوم في مناطق الأرياف، وانتقل الكثير منها الى جميع المدن، بدلا من تطورها الى أشكال متطرفة او اختفائها كلها؟!. ومن الغريب ان نجد مثلا بعض العادات الشائعة اليوم ترجع جذورها الى المجتمعات العراقية القديمة، ومنها مثلا عادات التقبيل او تحية الصباح^(xxxxvi). كما ان طريقة الخبز الذي كانت تتناوله القبائل العربية (البدوية) التي كانت تخزن على شكل فطيرة على موقد معدني تسمى (صاج)^(xxxxvii)، وفي المناطق الريفية الجنوبية هناك انواع من خبز الرز والشائع حتى اليوم وتسمى محليا (الطابق) و(الرصاص) و(السياح)^(xxxxviii).

ومما يؤكد طبيعة المجتمع التقليدية، هو انعدام الحرية الفكرية في معظم المراحل التاريخية، فمعظم أفراد في المجتمع العراقي، يرفضون التجديد في كل شيء من الأفكار أو السلوك بل أحيانا كل ما هو جديد بما في ذلك المقتنيات الحضارية أحيانا والتي واجهت العديد من الصعاب، فمثلا واجهت المدرسة الحديثة عند دخولها للعراق أواخر العهد العثماني العديد من الصعوبات في ارسال الأولاد الى المدارس الحديثة، بل ان قسما من أفراد المجتمع حاربوا أمثال تلك المدارس^(xxxix). ولكن يلاحظ من جهة ثانية، اذا ما أصر شخص ما على فكر او سلوك جديد او تبني قضية ما وقاوم الفكر المحافظ وانتصر، فسوف يكون هو الآخر مثار تقليد قد يستمر لمدة غير محددة، ولذلك لا غرابة ان نجد الشعوذة والسحر التي مارسها الكهان البابليون، ما زالت تمارس بأسلوب محاكاة البابليون القدماء ولكن تحت أغطية دينية أحيانا، في الوقت الحاضر، كما مارس البابليون القدماء تفسير الأحلام، و".... المواطن البابلي كان يعتبر الحلم مساويا للحقيقة، وبناءا على ذلك كانت رؤية الأله في الحلم تعني نفس رؤيته في الحياة الحقيقية، اذ ليس من المهم ان يكون الانسان نائما او ماشيا".^(xl).

طغيان الصفة العشائرية على التحضر كلما ضعف دور الدولة، والعكس بالعكس: فقد انقسم النظام الاجتماعي في المجتمع العراقي منذ زمن بعيد، إلى ثلاثة أقسام، (سكان المدن والجماعات القبلية الساكنة خارج المدن وسكان الأهوار)، وبالنظر للأهمية الدينية والتجارية، والصناعية، والثقافية، للمدن فقد تميزت المدينة بمركز متقدم في مختلف المراحل التاريخية السابقة، كما ان السلطة الرسمية للدولة، تمركزت في موقع المدن، اما الجماعات القبلية وسكان الأهوار فقد عاشوا خارج المدن، وكانت القبيلة او العشيرة على الأرجح، وحدة اجتماعية مترابطة، لها قانونها الخاص وطريقة حياتها الخاصة، وولاؤها لشيخها وزعمائها الدينيين، قبل ولائها إلى التنظيمات الرسمية للدولة^(xli). وظل المجتمع القبلي، يقوم على منظومة القيم البدوية القائمة على قيم (العصبية القبلية، الثأر والانتقام، الغزو والقتال، الشجاعة والنخوة والكرم)^(xlii)، و(الفصل والديمة)، والنظرة إلى (المرأة، والعمل)، نظرة ازدراء واحتقار^(xliii).

والفرد في المدينة يركن إلى الدولة والقانون في حين الفرد في الريف غالباً ما كان يركن ولا سيما قبل سنة ١٩٥٨ ، إلى قوة القبيلة أو العشيرة.. أما في حالة غياب قوة الدولة الحامية، فإن الفرد في المدينة، وجد نفسه مضطراً إلى البحث عن قوى اجتماعية لحمايته، وغالباً ما كانت القبيلة أو العشيرة، وربما احتوى بجماعات سياسية أو دينية أخرى، كالأحزاب أو الطوائف الدينية أو غيرها.

ضعف الثقة بين الحكام والمحكومين: وكانت تلك واحدة من نتائج (الاحتلالات والاستبداد)، إذ لوحظ أن أفراد العشائر في الريف كانوا يمقتون كل حكومة لأنها ضد طبائع البداوة التي لا تحب القيود التي تفرضها الحكومات^(xliv).

ومن الملاحظات التي يجب أن لا تغيب عن البال، أن الظاهرة القبلية أو العشائرية، ظلت ظاهرة مرتبطة بالسياسة، فكلما ضعفت سلطة الدولة، ظهرت قوة العشيرة أو القبيلة بصورة أكبر، وكلما برزت قوة الدولة وساد التحضر الذي تمثله الدولة من خلال سيادة القانون والولاء الوطني، تراجعت القبيلة والولاء لها. وتراجعت ظواهر (السلب والنهب)، لممتلكات الدولة وللأفراد (واقعة الشعيبة سنة ١٩١٤^(xlv)، وحصار الكوت ١٩١٦^(xlvi)، وأحداث (الفرهود) ١٩٤١^(xlvii)، كذلك في السنوات (١٩٩١، ٢٠٠٣).

اما في المدن فقد ارتبط بمستوى الوعي السياسي بشكل عام، ومما يلاحظ ان مستوى الوعي السياسي في العراق قد بدأ منذ او اخر العهد العثماني، وتصاعد مع بداية الحرب العالمية الأولى، وذلك المستوى من الوعي هو الذي زاد او أضعف الثقة والمشاركة في الوعي والعمل السياسي، فقد كان من نتيجة الاحتلالات الأجنبية ان العراقي أصبح لا يثق بالحكام، غالباً ما ردد شعار (أنا شعليه) التي تعني ان الأمر لا يعنيني.^(xlviii)

التقاعس والكسل: لاشك في ان تأثيرات الطقس والمناخ الحار في أيام عديدة من السنة، فضلا عن الرخاء الاقتصادي لقسم من أفراد المجتمع، ولذلك لم يكن مستغربا، ان وجدت ظاهر القيلولة (الاستلقاء ظهرا)، بسبب حرارة الجو من جهة، والتي غالبا ما تتمتع بها العراقي عاش حالة من الرفاهية الاقتصادية من جهة أخرى، ومن الملاحظ وحتى الوقت الحاضر، ان الموظفين في معظم دوائر الدولة (المدينة والعسكرية) يحاولون ان يضعوا (حدودا هلامية) للعمل والراحة، تحت مسميات شتى، فتجد قسما من الموظفون خلال أوقات الدوام الرسمي، يتظاهر بضرورة وجود وقت للراحة او الفطور، وربما كان ذلك سببا في انتشار حالة التقاعس او الكسل، التي تميز بها أعداد واسعة من افراد المجتمع العراقي، ولاسيما بالنسبة للجماعات ذات الحالة الاقتصادية الميسرة، ومنهم الموظفين في الوقت الحاضر.. اما القراء من افراد المجتمع، ولاسيما الفلاحين قبل حركة التغيير سنة في ١٤ تموز ١٩٥٨، وكذلك ذوي الدخول المحدودة كالعمال والحرفيين وغيرهم في جميع ميادين العمل الاقتصادي، فانهم أكثر نشاطا من او الجماعات الاقتصادية الميسورة، بسبب التحديات الاقتصادية اليومية. ولعل حالة الحصار الاقتصادي التي فرضت على العراق، قد ولدت حالة من التحدي الاقتصادي خلال السنوات (١٩٩٠ - ٢٠٠٣)، هي الأخرى قد جاءت بنتائج مغايرة لقسم كبير من أعداد السكان في العراق من خلال الابتعاد عن مظاهر عديدة من أشكال التقاعس والكسل، وممارسة حركة عمل مضاعفة، نتيجة للتحديات الاقتصادية التي أثرت في العديد افراد المجتمع، فتجد أعدادا واسعة من السكان من ذوي الدخول المنخفضة، ومنهم الموظفون بشكل خاص خلال تلك المرحلة، تخلى عن العديد من أوقات راحته وراح يعمل في أكثر من عمل واحد في اليوم الواحد.

العربي انسان شديد الحساسية في المواقف التي تمس كرامته: ولعل ذلك يتصل بطبيعته الازدواجية، على حد وصف الدكتور الوردي في سلوك الانسان العراقي فهو (متعلم — وقبي)، (سارق وكريم)، والمثقف العراقي (رافض ومستسلم).. الخ.

ضعف الثقة بين الرجل والمرأة، تحت مسوغات وشعارات قبلية وذات مسحة دينية أحيانا، ولاسيما في الريف من مثل (الحذار من خيرتهن).

ظاهرة الاستعلاء لا التفاعل مع الآخر: المتعلم على الجاهل، الشيخ على أفراد القبيلة، الضابط على الجندي أو الشرطي، الموظف على المراجع، او المسؤول بشكل عام عن المعية، الأستاذ على الطالب، الأب على الأبناء... الخ.

النظرة التقليدية(العثمانية)، الى الوظيفة (الأفندي)، المنصب يعطي (هيبة وقيمة) ويجب التمسك بها، ولا يجوز تركها، الا في الظروف القاهرة (الاكراه او التصفية)، وحين يترك الفرد الوظيفة لسبب او لآخر، ينفض ممن كانوا حوله.

ظاهر الحزن والتباكى على الماضي: ويتجسد ذلك بوضوح في الطقوس الدينية او الشعر او الغناء، منذ أقدم الأزمنة، فقد كانت "....الابتهالات التي تقدم لعشتر على مختلف النعوت...." وكان بيت الشعر المكرس للمديح يردد بيت آخر تذكر فيه أحزان المؤمن من مثل:

"يهرب قلبي

فيصعد كالطير في السماء

أنت كالحمامة

أنا أنحب كل يوم " .^(xlix)

وهذا الشعر ربما يذكرنا بما يطلق عليه في الزمن الحاضر بـشعر (الأبوزية) في الشعر العامي. كما ان عددا من الترانيم التي تتاغي بها الأم ولیدها في المهد، ما زالت حتى يومنا هذا لا تخرج عن إطار الحزن. كما ان معظم الأغاني العراقية (المقامات، او الريفية) تبدأ بكلمات الحزن من مثل : (آه ، آوه، آخ ، آوف، يا ويلي ، آه ياولي، يا يمة، يا يابه،... الخ) والمناسبات الدينية، او التواشيح الدينية غالبا ما تكون من نغم حزين (الصبا او البيات)، بل أحيانا حتى في مواسم الفرح تكون الأغاني الحزينة.

ويبدو ان هذه الظاهرة عراقية قديمة، اذا غالبا ما كان المزاج البابلي مثلا على عكس المزاج المصري الذي حفل بمظاهر الحياة اليومية فضلا عن تعليقاتهم المرحة، من خلال الوثائق النادر التي وجدت في الآثار المكتشفة⁽ⁱ⁾.

١٠. الدين في العراق ظاهرة قديمة:

وهي ترجع الى عصور ما قبل التاريخ، فقد وجد من بين الآثار المكتشفة في الوركاء تمثال البرونزي لملك عراقي قديم (٢٥٠٠ ق.م)، لا يختلف من حيث المظهر الخارجي للرجل الدين الحالي⁽ⁱⁱ⁾. كما وجدت (مذكرات الصانع البابلي)، تؤكد ظاهرة الدين في العراقي⁽ⁱⁱⁱ⁾. وتشير قسم من المصادر التاريخية مثلا الى انه كان يوجد في مدينة بابل

القديمة ثلاثة وخمسون معبدا لكتاب الآلهة، وخمسة وخمسون معبدا صغيرا مكرسا لمروخ، وثلاثمائة معبد صغير آخر لآلهة الأرض، وستمائة معبد صغير لآلهة السماء ومائة وثمانون مذبحا مقدسا لآلهة عشتار، ومثل هذا العدد للإلهين (نير كال) و(ادد)، واثنا عشر مذبها مقدسا لمختلف الآلهة، كما وجدت على لوح قديم في بابل يؤكذ ذلك، ومجموع تلك المعابد بلغ (١٠٠٨) معبداً، في حين بلغ عدد المذابح المقدسة (٣٧٢) مذبها، اي ان مجموع المعابد والمذابح المقدسة هو (١٣٨٠) معبداً ومذبها مقدسا^(iv)، في مدينة بابل الأثرية الصغيرة في معايير الحاضر.

ويبدو ان ظاهرة الدين الشكلي في عموم المجتمع العراقي، تعود الى ما يمكن تسميته وفقا للمثل الشائع اليوم (عادة مو عبادة)، أي يتحول (الدين) من فكر الى عادات اجتماعية مجردة من المحتوى.. ولذلك لم يكن مستغربا ان نجد شراب الخمر كان شائعا بين البابليين القدماء، و"كان الشراب يتم توزيعه أيضا بمعدل يزيد عن الغالون للفرد الواحد"^(iv). ويبدو لنا ان سبب ذلك يعود الى التمسك بقيم البدواة لا قيم الدين، وقيم البدواة تتناقض في الكثير من معانيها مع مبادئ الدين، او ان الدين لدى العديد من الأفراد يفهم بطريقة تتناسب مع حاجاتهم الشخصية والنفسية^(v). بكلمة أخرى نجد ان ظاهرة الدين لدى العديد من أفراد المجتمع العراقي في مختلف مراحل التاريخ القديم والمعاصر، (الريف او المدن)، أصبحت ظاهرة شكليّة غير عميقه، وبخاصة كلما انتشر الجهل بين أفراد المجتمع، نتيجة لتكرار الحروب والکوارث المتلاحقة.

ويبدو لنا، انه في ظل ظواهر الاحباط المتكررة والمتألقة، هي التي تدفع الانسان العراقي باتجاهين، فهو اما الى يتوجه الى الأيمان وتسليم أمره الى الخالق، (الا له قدما)، او الكفر بكل شيء، ولذلك تكثر الجرائم في ظروف الحروب والكوارث، ومثل تلك الحالات تذكرنا بحالة العميان او فاقد البصر ، الذين يتوزعون في ميولهم، بين المهن الدينية من مثل: (قارئ قرآن وشيخ دين وعاط ديني او خطيب) او في المهن الفنية في مجال الغناء والموسيقى،(مطرب، عازف، ملحن). ويقر أستاذنا الوردي برأي (الدكتور فاضل الجمالي) حين قال عن قيم البداءة، التي يتمثل بها الجهلة وهم أعداد كبيرة في المجتمع العراقي: " ويجب ان نعترف مع ذلك ان عقيدتهم هذه لم تمنعهم عن العصبية والغزو والثار والحمية وغير ذلك من القيم البدوية. فهم لا يرون اي تناقض بين شدة تمسكهم بالعقيدة الاسلامية وشدة تمسكهم بالقيم البدوية، او لعلهم لا يفكرون بذلك أصلا " .^(lvi)

ولذلك لا نستغرب حين نجد ان عددا غير قليل من اللصوص والقتلة، بعد انجاز جرائمهم يحاول قسم منهم القيام بالطقوس او الشعائر الدينية، كزيارة المرارق المقدسة، او الصلاة او الحج او الصيام، بل ان بعضهم مارس العديد من السلوكيات المتعارضة مع القيم الدينية الأصلية، فقد وجد الكثير من اللصوص الذي ينتشرون في أماكن العبادة الدينية، كالمعابد والأضرحة، ولذلك كلما حصل تواجد كثيف في تلك الأماكن تجد رجال الدين يذرون من السرقة. بمعنى أدق هناك صراع خفي، صراع حقيقي بين التدين الحقيقي والبدوادة.

الفصل الخامس

إن هذه القضية الشائكة إلى أقصى حد سيمها في العراق هذا البلد الذي يصح أن يسمى بلد (الجلوازة) كان العراق موئلاً لهذه القضية من أول أمرها ولا يزال يعاني منها ما يعاني ولم يكن هناك بلد من البلاد الإسلامية في شيء بمثيل ما انهمك العراق في هذه القضية إن رجال الدين الشيعة والسنّة يتذاذعون على أساس قبلي كما يتذاذع البدو في الصحراء فكل فريق ينظر إلى من مساوئ خصمه وكل حزب بما لديهم فريحون فكلا الطائفتين كانوا في عهد الدولة الأموية كان الشيعة وأهل السنّة يؤلفون حزب الثورة إذا كان الشيعة يثورون على الدولة بالسيوف بينما كان أهل السنّة يثورون عليهم بأحاديثهم النبوية هؤلاء كانوا ينهون عن المنكر بالسنتهم وأولئك كانوا ينهون عن المنكر بآيديهم أن مصطلح (أهل السنّة والجماعة) لم يظهر في التاريخ إلا في أيام المأمور وكان قبل ذلك يدعون أهل الحديث والسنّة لفظتان متراافقان من بعض الوجوه أن أننا لا نبعد عن الصواب إذا قلنا بأن أهل الحديث لم يكونوا أقل من الشيعة عداءً للأمويين ومعارضة عليهم إنما كانوا يختلفون عن الشيعة بشيء واحد وهو أنهم لجأوا إلى سلاح الحديث يجمعونه ويصقلونه ويحاربوا به الظلم والترف والطغيان الذي كان سائداً في ذلك العهد أن الثورة بوجه عام تحتاج إلى نوعين من السلاح هما سلاح السيف وسلاح القلم ولم تنجح الثورات إلا بوجود القاعدة أو اللسان التي تنشر مبادئها^(١)

(١) علي الوردي، وعاظ المسلمين، الطبعة الثانية، عام ١٩٩٥ دار كوفان - لندن ص ٢٢٩-٢٣٠-٢٣٢

لقد وقف القارئ المتفحص على ما جاء به الوردي من سرد تاريخي لوجدناه انه قد أسس موقعا فكريا كثيرا أزاه باعتباره القضية المهمة والتي اعتبرت على مر السنين قضية مسيسة ومحزبة ومؤدلجة فضلا عن مشكلتها الدينية العقائدية والتاريخية والتي شكلت بدورها جزءاً مما من ثقافة الفرد العربي المسلم لا سيما في العراق والوردي بهذا الموضوع بالذات تحدث بامانة علمية متجرد من أي انتماء ديني أو سياسي أو عرقي أو طائفي فقد عالج الموضوع ليس كونه عربي مسلم ينتمي الى طائفة الشيعة او الطائفة السنوية والوردي يرجع أسباب هذا الموضوع قضية الى جهل فئات كبيرة من المجتمع العراقي حيث صارت القضية مرض مزمن يعاني منها العراق طيلة مراحل التاريخ اثر على أحواله السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والدينية وغيرها من مظاهر الحياة العراقية ويشير الوردي الى انه اجيال عرقية ورثت هذا الاعتقاد من الاباء فهم لا يفهمون إلى نشأوا عليه من تقاليد وعقائد وطقوس شأنهم في ذلك شأن أي مجتمع جاحد دأبة ان يقول أنا وجدنا آباءنا على ذلك وأنا على آثارهم مقتدون والوردي يعتبر أن جذور القضية إنما هي قبلية ويلعب فيها شعور الفرد العاطفي الحماسي البدوي القائم على التعصب العربي وإلا ما هو الخلاف في الموقف من محمد؟ وما هو الخلاف في الموقف من القرآن؟ ومن السنة؟ ومن أهل البيت الرسول والصحابة؟ وغيرهم والمسبب في تلك الخلافات هو استنباتات فكرة السلطة او القيادة او الحكومة عندما راح المسلمون يفكرون في من سيقود الأمة بعد وفاة محمد النبي والرسول إذن أساس الخلاف ليس دينيا^(٢).

يوسع الوردي النظرة إلى من سماهم (وعاظ السلاطين) فيضيف إلى وعاظ السلاطين من رجال الدين المساومين صنف آخر يسميه (وعاظ المترنجين) الذين نما نفوذهم بعد أن ضعف نفوذ التدين ان وعاظ المترنجين لا يختلفون عن (المعممين) إلى بمظاهرهم الخارجية ومصطلحاتهم التي يتمشدون بها هؤلاء يصيرون (الدين... الدين... يا عباد الله) وأولئك يصيرون يهتفون إلى الأمام إلى الأمام هؤلاء يهتفون إلى الوراء ولعلهم يفعلون ذلك لكي يخدعون الناس ويشغلو أذهانهم على النظر في مشاكلهم الراهنة التي هي ليست إلى الأمام ولا إلى الوراء والوردي يرى أن الاثنين وعاظ السلاطين المعممين ووعاظ السلاطين المترنجين يصلون في النهاية إلى النتيجة ذاتها وهي تثبيت أساس الحكم الدكتاتورية المتسلط وتثبيط معنويات معنويات المستضعفين وشن إرادتهم وهذا يؤشر ظاهرة مريضة كانت قائمة أنداك ثم استمرت في العقود اللاحقة وتمثل في السعي إلى الالهات إلى أحياء الأمجاد القديمة الذهبية دون التميز بين معنى الاستعادة الابتعادي الذي ينم عن العجز وانعدام الخلافية والتمثيل الذي يعكس الخلافية العالية والإرادة الفاعلة في بناء الحاضر انه من المؤسف حقا أن نرى العراق الحديث الحديث تسوده أفكار من نوع تلك الأفكار السلطانية فقد أصبح الكثير من المتعلمين فيه لا يكرثون بما يصب على رؤوس القراء من بلاء^(٣)

٣- حسين سلمان حسن الناقد العراقي علي الوردي ١٦ فشلت نبوءة في زوال الطائفية من العراق من وعاظ السلاطين إلى وعاظ

المترنجين ٢٠١٤/٤/١٤ www.alnaked_aliraqi.net/article/21855

يقول الدكتور علي الوردي قد يستغرب القارئ إذا علم بأنه كلتا الطائفتين كانتا في أول الأمر من حزب واحد وإن الذين فرقوا بينهما هم السلاطين وواعظ السلاطين في عهد الدولة الأموية كان الشيعة وأهل السنة يؤلفون حزب الثورة إذ كان الشيعة يثورون على الدولة بسيوفهم بينما كانوا أهل السنة يثورون عليهم بأحاديثهم النبوية هؤلاء كانوا ينهون عن المنكر بالسننهم وأولئك ينهون عن المنكر بآيديهم ومن الجدير بالذكر أنه مصطلح أهل السنة والجماعة لم يظهر في التاريخ إلا في عهد الخليفة العباسي المتوكل وكانوا قبل ذلك يدعون باهل الحديث والحديث^(٤)

.....

٤- موقع عبد الخالق حسين جذور الانقسام السنوي والشيعي في الإسلام الفصل الثاني www.abdulkhaliqhussein.nl/news/384.html

ان التشيع بين القبائل العربية التي كانت تسكن الكوفة ثم اخذ ينتشر تدريجيا بين أهل السواد اي بين الموالي الذين يسكنون المنطقة الرسوبية في العراق وقد كان التشيع في بداية الامر لا يختلف عن غيره من المذاهب الإسلامية الا في الاتجاه السياسي اذا كان مذهبها ثوريا يؤيد العلوبيين في ثورتهم على الدولة الأموية وعندما ظهرت الدولة العباسية وقضت على الدولة الأموية اعتبر ذلك في حينه انتصارا للتشيع فالعباسيون كانوا في العهد الأموي من الشيعة و كانوا يشاركون أبناء عمهم العلوبيين في الثورة على الأمويين ولكن تشيع هذه الدولة لم يستمر طويلا فلما نشب النزاع العنيف بين العباسيين والعلوبيين انقسم الشيعة في العراق الى طريقين أحدهما التزم جانب العباسيين وهي التي اطلق عليها اسم أهل السنة والجماعة والثانية التزمت جانب العلوبيين

وهي التي ضللت متمسك باسم الشيعة^(١)

يقول الشيخ عبد العزيز الذهلي ان أهل السنة كانوا هم الشيعة المخلصين و لكنهم تركوا لقب الشيعة تحرزاً من الالتباس وكرهه الاشتراك الاسمي مع الشيعة (السببية) فما ورد في بعض الكتب كتاریخ الواقدي والاستیعاب من أن فلانا كان من الشيعة مثلا لا ينافي ما ورد في غيرها من انه من رؤساء أهل السنة والجماعة حيث المراد بالشيعة هناك الشيعة الأولى وكان أهل

السنة منهم^(٢)

١ - علي الوردي، دراسة هي طبيعة المجتمع العراقي، ٣١٠ / وارد صفحة ١٩٢

٢ - عبد العزيز الذهلي، مختصر التحفة الاثنى عشرية، تلخيص محمد الشكري اللالوسي، صفحة ٧ ضمن المصدر السابق

من الظواهر الاجتماعية التي تلفت النظر في العراق توزيع الطائفى في مناطق مختلفة يعتمد على مدى اتصالك بالمنطقة منها يبدأون في منطقة الجزيرة وخصوصا في الجزء الشمالي من القبائل والمدن كلها على مذهب أهل السنة وهي تكاد تتشابه في عقائدها وطقوسها بدو الصحراء قد نجد هنالك جيوباً صغيرة لكنها بعض الغلة وهي تكاد شاذة في نظر الذين يحيطون بهم كالشبك قرب الموصل والنصيرية قرب عانة وحين نهبط قليلا نحو الجنوب نجد الناس محافظين على سنته غير إن التصوف أخذ يتغلغل بينهم ولكننا لا نكاد نصل إلى وسط العراق حتى نلاحظ أن التسنن بدأ يختفي في بعض القبائل والمدن ليحل التشيع محله هناك نرى التشيع يظهر على بعض القبائل دون البعض الآخر منها وحين ننتقل من وسط العراق إلى جنوبها حيث المنطقة الرسوبية الكبرى نرى التشيع قد ضرب نطاقه في كل مكان وقلما نجد في هذه المنطقة قبيلة أو مدينة أو محله سنية ان هذه المنطقة هي الموطن الذي نشأ فيه التشيع في بداية أمره و فيها تتركز الدعاية الشيعية تركيزاً شديداً أما في منطقة ديالى فالاختلاط الطائفى قد بلغ أقصاه و ربما جاز القول بان التعايش السلمي بين الطائفتين هنالك غير قليل و ليس من النادر ان نرى محلة سنية تشارك محلة شيعية في بعض مواكبها و مجالسها الحسينية وقد شاركها أيضاً في تقدیس بعض مرارتها و أميتها⁽¹⁾

عند نشوب ثورة العشرين كانت المرجعية الدينية لدى الشيعة قد انحصرت في الميرزا تقى الشيرازي الذي كان يسكن كربلاء وقد ساعده هذا الرجل على قيام الثورة وقيادتها مساعده فعالة كما هو معروف وقد مات في ١٧/١٢/١٩٢٠ عندما كانت الثورة في عنفوانها فانتقلت المرجعية للشيخ فتح الله الأصفهاني الملقب بشيخ الشريعة وكان يسكن النجف واستمر على مساعدة الثورة والأسراف عليها حتى آخر أيامها كان هناك ثلاثة مجتهدين مرشحين المرجعية عند موته شيخ الشريعة الثانية من هم يسكنون النجف، السيد ابو الحسن الأصفهاني والميرزا حسين النائيني واحد يسكن الكاظمية هو الشيخ مهدي الخالصي وقد كانا الخالصي اكبر الثلاثة سنًا وكأنما زميلاه يعترفان بمكانته فيهم ويحترمان رأيه في كثير من الأحيان ويمتاز الخالصي أيضاً بأنه كان شديد الاهتمام بالسياسة ويعدها جزءاً لا يتجزء من الدين انه كانا يعتبر الدين له ظاهر وباطن ظاهره العبادات والشعائر اما باطنه ينحصر في السعي لتخليص البلاد الإسلامية من تصلب الكبار وقد كانوا يفضل حكم الاتراك على حكم الإنجليز فأولادك مسلمون وهو لاء كفار والحاكم المسلم في نظرة لو كان ظالماً خيراً من الكافر العادل فالخالصي بهذا يخالف رأي ابن طاووس الذي أفتى به قديماً وهو أن الكافر العادل خير من المسلم الظالم لأن كوكس حريراً على إدخال الشيعة في الوظائف وخاصة في منطقة الفرات الأوسط والعتبات المقدسة ولكن وجده إمامه عقبتين تعرقلان عليه سبilla أولهما فتوى الخالصي والأخرى امتناع النقيب وبعض الوزراء بتوظيف عدد محدود من الشيعة^(١)

١ - علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء ٦/القسم الأول، ص ٣٠، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ النشر للكوثر كوير

بعد انتهاء الملك من مشكلة الوزارة الجديدة بدأ يواجه مشكلة أخرى وهي ضرورة إدخال شبان من الشيعة في الوظائف الحكومية غير أنه لم يجد بين الشيعة عدداً كافياً من ذوي التعليم الحديث الذين يصلحون لِإشغال تلك الوظائف وبعد المداولة مع مستشارين ولاسيما سكرتيرة رستم حيدر استقر رأيه على تشجيع الانكفاء من شبان الشيعة ذوي التعليم القديم على الدخول في مدرسة الحقوق التي كانت قد أعيد فتحها السنة الماضية كان توفيق السويفي قد عين مدير مدرسة الحقوق في تشرين الثاني ١٩٢١ خلفاً لمديرها السابق الكولونيل بيل فقد كان الملك مصراً على إدخال أولئك الشبان في مدرسة الحقوق وقد اضطر توفيق السويفي أخيراً إلى قبولهم ويدعى السويفي أن الملك أرغم ساطع الحصري الذي كان مديرًا عامًا للمعارف آنذاك على المصادقة على شهاداتهم ثم آتى إليه بعدها قبلهم في المدرسة وأمره إلى الله فقد ذكر الحصري في مذكراته أنه لم يصادق على شهادات الشبان الشيعة ولكن السويفي وهو الذي تساهل في قبولهم وأنهز الفرصة وأخذ يتسامل في قبول شهادات الأرمن واليهود بالإضافة إلى

شهادات الشيعة (٢)

كان الشيخ عبد الوهاب النائب قد وجه الدعوة إلى عدد من علماء السنة ببغداد لحضور اجتماع يعقد في تكية الخالدية للتداول في أمر (الإخوان) وهل يجوز ضربهم و في صباح ٥ نيسان تم عقد الاجتماع وحضره اكثر المدعوين بينما تخلف البعض منهم وكان من بين المتخلفين محمود شكري الالوسي وعبد الحليم الحاقاني ويونس العطا وحمدي الأعظمي وسلیمان السنوي وقاسم المفتى وافتتح عبد الوهاب النائب الاجتماع وأخذ يذكر الفظائع التي اقترفها الوهابيون في المسلمين العراقيين ثم تسأله قائلًا ما تقولون في هذه الطائفة المسمة بالإخوان وهل ترون وجوب مقاتلتهم وردعهم عن أمثال هذه التجاوزات نظراً لكونهم هتكوا حرمات المسلمين واستباحوا دمائهم وأموالهم بغير ذنب وتأويل ثم استشهد ما فعله أبو بكر باهل الردة وما فعله الأئم علي بالخارج الذين كانوا أكثر الناس صلاتاً صياماً واقتصر أن يقرأ الفصل الخاص بالوهابية في كتاب ابن عابدين فقرأ أحد الحاضرين فقرة من الكتاب مفادها أنه من يستبيح دماء المسلمين كافر يجب مقاتلته فوافق الحاضرون على ذلك واجمعوا رأيهما على وجوب الدفاع العام واستقر الحاضرين على انتخاب وفد منهم لحضور مؤتمر كربلاء اختير النائب رئيساً للوفد واختير أحمد الشيخ داود إبراهيم الرومي وعبد الجليل جميل أعضاء وبashروا بكتابه الفتوى وهذا نصها (ما قول علماء المسلمين الإعلام فيمن يدعى الإسلام ويحكم بشرك من خالف معتقداتهم من جماعات المسلمين محللين قتالهم ودمائهم وأموالهم وسيبي نسائهم وذرياتهم بغير سبب وقد هجموا على بلاد المسلمين عدو فهل يجب قتالهم والدفاع أم لا أفتونا مأجورين الجواب والله سبحانه وتعالى أعلم: نعم يجب قتالهم والحالة هذه^(٣))

الخاتمة :

من كل ما تقدم يمكننا القول، ان تفاعل العناصر المكانية والبشرية في العراق في اطار التاريخ المشترك او العنصر الزماني لجميع تلك العناصر، خلق مركبا جمعيا ذا مواصفات نفسية خاصة، تقوم على أساس مواجهة التحدي المستمر للتفاعلات المكانية (الطبيعية) الداخلية، وفي الوقت نفسه فان هذا المركب متحفز دائما للتحديات البشرية الوافدة الى ساحته بصورة غير سلمية(حرب او الاحتلال) باستمرار، وثنائية التحدي (الداخلي والخارجي)، (الطبيعية والبشرية)، جعلت من تركيبة المكون الاجتماعي النفسي العراقي، قادرا على مواكبة الأحداث وتفاعل جميع المكونات الداخلة في تركيبته الخاصة، وقبول التحديات الخارجية في حدود زمانية معينة.. ولعل ذلك خلق مكونا ذا مركب، نفسي - اجتماعي خاص بجماعة تميزت بالعصرية الاجتماعية والسياسية القادرة على خلق التناغم بين جميع المكونات الداخلية الخاصة به وتذويبها لصالح المكون المشترك مع امكانية التفاعل والتجدد الدائم مع مختلف العناصر والظروف المحيطة به.

جدول رقم (١)

سنوات الحكم الأجنبي للعراق من قيام الدولة حتى الفتح الإسلامي (١٥٠٠ق.م - ٦٣٦م)

الحكم الأجنبي	المرحلة التاريخية	تاریخه(من - الى)	مجموع سنوات الحكم	نسبة الحكم
كاشاني (فارسي)	العصر البابلي الوسيط	٦٣٦م - ١٥٠٠ق.م	٨٧٤ سنة متواصلة من أصل ٣٠٠٠ سنة تقريباً	١٣,٢٩% أجنبي ٧٠,٨٧% وطني
فارسي - أوربي	اخميني - فرثي - ساساني	٥٣٩م - ١١٧٥ق.م	١١٧٥ سنة حكم أجنبي من أصل ١٢٦٢ سنة للحكم ككل	٩٣,١٠% أجنبي ٦,٩% وطني
مجموع سنوات الحكم الأجنبي	قبل الفتح الإسلامي	١٥٠٠ق.م - ٦٣٦م	٢٠٤٩ سنة حكم أجنبي متواصل من أصل ٣٦٣٦ سنة	٥٦,٣٥% أجنبي ٤٣,٦٥% وطني

جدول رقم (٢)

يمثل سنوات الحكم الأجنبي في العراق مقارنة مع سنوات الحكم العربي الإسلامي

(١٩٥٨ - ٦٣٦) م

نسبة سنوات الحكم	عدد سنوات الحكم او النفوذ	تاريخه	الآقوام	حكم او نفوذ أجنبي
١٦,١١ % حكم أجنبي ٨٤,٨٨ % حكم عربي	٢٢ سنة نفوذ البرامكة من أصل ١٩٧ سنة حكم بصبغة عربية	١٩٧ م - ٨٣٣ م	عربية وفارسية	من القادسية الى نهاية حكم المأمون
٩٠,٧٥ % حكم أجنبي ٩,٢٥ % حكم عربي	١٠٢١ سنة حكم أجنبي من أصل ١٢٥ للحكم ككل حكم عربي ؛ ١٠٤ سنة فقط.	١٩٥٨ م	أقوام مختلفة (أتراك، مغول، فرس، مماليك، عثمانيون، بريطانيون).	من بداية حكم المعتصم الى بداية العهد الجمهوري
٩٩ % حكم أجنبي ١ % حكم عراقي	٧٠٠ سنة حكم أجنبي متواصل قبل العهد الجمهوري (باستثناء حكومات محلية محددة (الموصل - البصرة)	١٩٥٨ - ١٢٥٨	أقوام مختلفة	من انهيار الحكم العباسى بداية العهد الجمهوري

جدول رقم (٣)

سنوات الحكم الأجنبي مقارنة مع سنوات الحكم العربي الإسلامي والعربي للعراق من قيام نظام الدولة في

العراق ١٥٠٠ ق.م حتى ١٩٥٨

سنوات الحكم الأجنبي الكلي للعراق عبر التاريخ الإسلام وبعده) ١٥٠٠ - ١٩٥٨ م	أقوام مختلفة	٢٨٢٦ سنة حكم أجنبي من أصل سنوات الحكم الكلية ٣٤٥٨ سنة	حكم أجنبي فقط % ٨١،٧٢
سنوات حكم العرب وال العراقيين الكلي عبر التاريخ ككل (قبل الاسلام وبعده) ١٥٠٠ - ١٩٥٨ م	عرب مختلفون	٦٣٢ سنة حكم عربي وعربي من أصل ٣٤٥٨ سنة	١٨،٢٨ % حكم عربي (عربي وغير عربي)
سنوات الحكم العربي (غير العراقي) الكلي ١٩٥٨ - ١٥٠٠ م	عرب مختلفون	٣٠١ سنة عربي فقط من أصل ٦٣٢ سنة	٨،٧٠ % (عربي غير العراقي)
سنوات الحكم العراقيين فقط.. الكلي ١٥٠٠ - ١٩٥٨ م	ال العراقيون فقط ٣٣		٥،٩ % عراقي فقط

﴿المصادر والمراجع﴾

ابن خلدون، المقدمة، بيروت، (ب. ت).

أحمد سوسة ، تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري الزراعية والمكتشفات الآثرية،
الجزء الأول، بغداد، ١٩٨٣.

احمد سوسة، حضارة العرب ومراحل تطورها عبر التاريخ، بغداد، ١٩٧٩.

- باقر جاسم محمد، الهوية الوطنية: محاولة في التعريف الوظيفي، منشورة موقع مؤسسة البلاغ:
<http://www.balagh.com>

جورج كونتيينو، الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي وبرهان عبد
التكريتي، بغداد، ١٩٧٩.

جيمس ريموند ولستيد، رحلتي الى بغداد في عهد الوالي داود باشا، ترجمة سليم التكريتي، بغداد،
١٩٨٤.

الحارث عبد الحميد حسن الأنصاري ، الشخصية العراقية، المعرفة (مجلة شهرية سعودية)، العدد ١٥٦
- ربيع الأول ١٤٢٩ هـ مارس ٢٠٠٨م.

رسل برادون، حصار الكوت، الجزء الثاني، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي وعبد المجيد ياسين
التكريتي، بغداد، ١٩٨٥.

س.ن. كريم، هنا بدأ التاريخ، ترجمة ناجية المراني، بغداد، ١٩٨٠

سامي سعيد الأحمد ، تاريخ العراق في القرن السابع ق.م..، الطبعة الأولى، بغداد، ٢٠٠٢.

ستار نوري العبوسي، المجتمع العراقي في سنوات الانتداب البريطاني، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، قم .
ایران(د. ت).

ستار نوري العبوبي، عبد العزيز العقيلي . حياته ودوره العسكري والسياسي في العراق ١٩١٩ - ١٩٨١ ، الطبعة الأولى ، بغداد ، ٢٠٠٩.

ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، الطبعة الرابعة، ايران، (د. ت) ..

سيّار الجميل، اللحظات الأخيرة: متى يتعلّمها زعماء العراق؟؟؟

http://albadeal.com_

طارق نافع الحمداني، المدينة العراقية في العصر العثماني (٢)، ضمن حضارة العراق، وزارة الأعلام، الجزء العاشر ، بغداد ، ١٩٨٥ .

طه باقر وآخرين ، تاريخ العراق القديم ، الجزء الثاني ، جامعة بغداد ، ١٩٨٠ .

عبد الرحمن الباز ، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال ، الطبعة الثانية ، بغداد ، ١٩٦٧ .

عبد الرحمن محمد عيسوي ، دراسات في علم النفس الاجتماعي ، بيروت (د. ت) .

عبد الرزاق عباس حسين ، الجغرافية السياسية ، بغداد ، ١٩٧٦ .

عبد القادر باش أعيان العباسي ، البصرة في أدوارها التاريخية ، البصرة ، ١٩٦١ .

عز الدين دياب ، انثروبولوجيا التنمية الثقافية ، مجلة الموقف الأدبي ، (دمشق . اتحاد الأدباء العرب) ، العدد ٤٣٣ ، أيار ٢٠٠٧ .

عطّا عبد الوهاب ، سلالة الطين سيرة مأساة ، ط ١ ، بيروت ، ٢٠٠٤ .

علاء الدين القبانجي ، سايكولوجية العنف في العراق ، مجلة النبأ ، (شهرية) ، بيروت ، العدد ٤٨ ، في آب ٢٠٠٠ .

- علي الوردي ، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، بغداد، ١٩٦٥ .
- ليو وبنهايم، بلاد ما بين النهرين، ترجمة سعدي فيضي عبد الرزاق، الطبعة الثانية، بغداد ١٩٨٦ .
- نوري عبد الحميد خليل، المرأة وأثرها في المجتمع (١)، ضمن: حضارة العراق، وزارة الاعلام، ج ١٠ ، بغداد، ١٩٨٥ .
- ماري شهرست ، أسس الهوية، مجلة تحولات، العدد ٧- كانون الثاني، السبت ١٨ آذار (مارس) ٢٠٠٦ .
- مكي الجميل، البدواة والبدو في البلاد العربية، سرس الليان، ١٩٦٢ .
- ميزوبيوتاميا، (مجلة عراقية)، مدن العراق القديم، العدد ٦٥ . ٢٠٠٥ .
- يوسف كركوش تاريخ الحلة، القسم الأول، قم . ايران، ١٤١٣ هـ
- جامعة بابل/ مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية/ د. ستار نوري العبودي